23-سورة المؤمنون-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾

هذا تنويه من الله بذكر عباده المؤمنين و ذكر فلاحهم وسعادتهم و بأى شيء وصلوا إلى ذلك

صفات المؤمنين و جزاؤهم 1-11

و فى ضمن ذلك الحث على الاتصاف بصفاتهم و الترغيب فيها.

فليزن العبد نفسه و غيره على هذه الآيات يعرف بذلك ما معه و ما مع غيره من الإيمان زيادة و نقصا كثرة و قلة

(قَدۡ أَفۡلَحَ)فاز و سعد و نجح(ٱلۡمُؤۡمِنُونَ)و أدركوا كل ما يرام المؤمنون الذين آمنوا بالله و صدقوا المرسلين﴿١﴾

(ٱلَّذِينَ)من صفاتهم الكاملة أنـ(هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ)

و الخشوع فى الصلاة:-هو حضور القلب بين يدى الله تعالى مستحضرا لقربه فيسكن لذلك قلبه و تطمئن نفسه و تسكن حركاته و يقل التفاته متأدبا بين يدى ربه مستحضرا جميع ما يقوله و يفعله فى صلاته من أول صلاته إلى آخرها فتنتفى بذلك الوساوس و الأفكار الردية

و هذا روح الصلاة و المقصود منها و هو الذى يكتب للعبد فالصلاة التى لا خشوع فيها و لا حضور قلب و إن كانت مجزئة مثابا عليها فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها.

*أبي داود 4985 عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ:

قَالَ مِسْعَرٌ أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ:-لَيْتَنِى صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ:-

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:-«يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»﴿٢﴾

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ)و هو الكلام الذى لا خير فيه و لا فائدة

(مُعْرِضُونَ)رغبة عنه و تنزيها لأنفسهم و ترفعا عنه و إذا مروا باللغو مروا كراما

و إذا كانوا معرضين عن اللغو فإعراضهم عن المحرم من باب أولى و أحرى

و إذا ملك العبد لسانه و خزنه–إلا فى الخير–كان مالكا لأمره كما قال النبى ﷺلمعاذ بن جبل حين وصاه

بوصايا قال:–«ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟»قلت:–بلى يا رسول الله فأخذ بلسان نفسه و قال:–

«كف عليك هذا»فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة كف ألسنتهم عن اللغو و المحرمات(٣)

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ)مؤدون لزكاة أموالهم على اختلاف أجناس الأموال

مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق و مساوئ الأعمال التى تزكو النفس بتركها و تجنبها فأحسنوا فى عبادة

الخالق فى الخشوع فى الصلاة و أحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

*الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالزَّكَاةِ هَاهُنَا زَكَاةُ الْأَمْوَالِ وَ قَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالزَّكَاةِ هَاهُنَا:-

زَكَاةُ النَّفْسِ مِنَ الشِّرْكِ وَ الدَّنَسِ كَقَوْلِهِ:{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا 9 وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشَّمْسِ](٤)

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)عن الزنا

و من تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك كالنظر و اللمس و نحوهما.فحفظوا فروجهم من كل أحد(٥)

(إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ)من الإماء المملوكات

(فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)بقربهما لأن الله تعالى أحلهما(٦)

(فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ)غير الزوجة و السرية

(فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه المتجرئون على محارم الله.

و عموم هذه الآية يدل على:–

1–تحريم نكاح المتعة فإنها ليست زوجة حقيقة مقصودا بقاؤها و لا مملوكة و تحريم نكاح المحلل لذلك.

2–و يدل قوله(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ)أنه يشترط فى حل المملوكة أن تكون كلها فى ملكه

فلو كان له بعضها لم تحل لأنها ليست مما ملكت يمينه بل هى ملك له و لغيره

فكما أنه لا يجوز أن يشترك فى المرأة الحرة زوجان فلا يجوز أن يشترك فى الأمة المملوكة سيدان.

3–وَ قَدِ اسْتَدَلَّ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَ مَنْ وَافَقَهُ عَلَى تَحْرِيمِ الِاسْتِمْنَاءِ بِالْيَدِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ

{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}قَالَ: فَهَذَا الصَّنِيعُ خَارِجٌ عَنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ

وَ قَدْ قَالَ: {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}(٧)

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)مراعون لها ضابطون حافظون حريصون على القيام بها و تنفيذها

و هذا عام فى جميع الأمانات التى هى حق لله و التى هى حق للعباد قال تعالى:-

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ

فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة على العبد حفظها بالقيام التام بها و كذلك يدخل فى ذلك أمانات الآدميين كأمانات الأموال و الأسرار و نحوهما

فعلى العبد مراعاة الأمرين و أداء الأمانتين(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

و كذلك العهد يشمل العهد الذي بينهم و بين ربهم و الذى بينهم و بين العباد و هى الالتزامات و العقود التي يعقدها العبد فعليه مراعاتها و الوفاء بها و يحرم عليه التفريط فيها و إهمالها

*إِذَا اؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا بَلْ يُؤَدُّونَهَا إِلَى أَهْلِهَا وَ إِذَا عَاهَدُوا أَوْ عَاقَدُوا أَوْفَوْا بِذَلِكَ لَا كَصِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِين قَالَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-"آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ:-

إِذَا حَدَّث كَذَبَ وَ إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ و إذا اؤتمن خَانَ(البخارى33) 8

(وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ)يداومون عليها فى أوقاتها و حدودها و أشراطها و أركانها

فمدحهم بالخشوع بالصلاة و بالمحافظة عليها لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين

فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع أو على الخشوع من دون محافظة عليها فإنه مذموم ناقص.

*يُوَاظِبُونَ عَلَيْهَا فِي مَوَاقِيتِهَا كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ:-

*البخارى5970 - عن الوَلِيد بْنُ عَيْزَارٍ أَخْبَرَنِي قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَمْرٍو الشَّيْبَانِيَّ يَقُولُ:

أَخْبَرَنَا - صَاحِبُ هَذِهِ الدَّارِ وَ أَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى دَارِ - عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود

قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ:-«الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا»

قَالَ:ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ:«بِرُّ الوَالِدَيْنِ»قَالَ:ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ:«الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»قَالَ:-

حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَ لَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي 9

(أُوْلَٰٓئِكَ)الموصوفون بتلك الصفات(هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ)

الذى هو أعلى الجنة و وسطها و أفضلها لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها و ذروتها

أو المراد بذلك جميع الجنة ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم و مراتبهم كل بحسب حاله

*البخارى 2790 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ أَقَامَ الصَّلاَةَ وَ صَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ؟

قَالَ:-«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَ أَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَ مِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ» قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ:-وَ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ

*ابن ماجه2767-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

قَالَ:«مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَجْرَى عَلَيْهِ أَجْرَ عَمَلِهِ الصَّالِحِ الَّذِى كَانَ يَعْمَلُ وَ أَجْرَى عَلَيْهِ رِزْقَهُ

وَ أَمِنَ مِنَ الْفَتَّانِ(بضم الشين فتشديد جمع فاتن و قيل بفتح وتشديد للمبالغة)وَ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمِنًا مِنَ الْفَزَعِ»

*مسلم (2767) عَنْ أَبِي مُوسَىﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ:-

هَذَا فِكَاكُكَ(بفتح الفاء وكسرها والفتح أفصح وأشهر وهو الخلاص والفداء)مِنَ النَّارِ"

*قُلْتُ: وَ هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:-{تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} [مَرْيَمَ: 63]

وَ كَقَوْلِهِ: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الزُّخْرُفِ: 73] .

*قال سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْجَنَّةُ بِالرُّومِيَّةِ هِيَ الْفِرْدَوْسُ.

*وَ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:-لَا يُسَمَّى الْبُسْتَانُ فِرْدَوْسًا إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهِ عِنَبٌ فَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)لا يظعنون عنها و لا يبغون عنها حولا لاشتمالها على:-

أكمل النعيم و أفضله و أتمه من غير مكدر و لا منغص 11

من مظاهر قدرة الله و اثبات البعث 12-22

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ)ذكر الله فى هذه الآيات أطوار الآدمى و تنقلاته من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه

فذكر ابتداء خلق أبى النوع البشرى آدم عليه السلام و أنه (مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ)

أى: قد سلت و أخذت من جميع الأرض و لذلك جاء بنوه على قدر الأرض منهم الطيب و الخبيث و بين ذلك و السهل و الحزن و بين ذلك.

*أحمد19582 عَنْ أَبِي مُوسَىﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:

إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ(بفتح القاف أو ضمها، كغَرْفة وغُرفة، والفتح أشهر.على قدر الأرض، أي: على لونها وصفاتها من الخبيث والطيب والخبيثُ والطيبُ: هما الكافر والمؤمن، قال تعالى:{والبلدُ الطَّيبُ يخرجُ نَبَاتُه بإذن ربِّه والذى خَبُثَ لا يخرج إلا نكِدًا}[الأعراف: 58] هو مَثَل لهما)

قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ.

جَاءَ مِنْهُمُ الْأَبْيَضُ وَ الْأَحْمَرُ وَ الْأَسْوَدُ وَ بَيْنَ ذَلِكَ وَ الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ السَّهْلُ(هو الذى فيه رِفْق)

وَ الْحَزْنُ(هو الذي فيه شدة في الخُلُق) وَ بَيْنَ ذَلِكَ(١٢)

(ثُمَّ جَعَلْنَاهُ)صيرنا أى: جنس الآدميين(نُطْفَةً)تخرج من بين الصلب و الترائب

فتستقر(فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ)و هو الرحم محفوظة من الفساد و الريح و غير ذلك.

*هَذَا الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى جِنْسِ الْإِنْسَانِ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:-

{وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ 7 ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} [السَّجْدَةِ] أَيْ: ضَعِيفٍ

كَمَا قَالَ: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} يَعْنِي:-الرحمُ مُعد لِذَلِكَ مُهَيَّأٌ لَهُ

{إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ22 فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ}[الْمُرْسَلَاتِ] أَيْ: إِلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ وَ أَجَلٍ مُعَيَّنٍ حَتَّى اسْتَحْكَمَ

و تنَقَّلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَ صِفَةٍ إِلَى صِفَةٍ(١٣)وَ لِهَذَا قَالَ هَاهُنَا:

(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ)التى قد استقرت قَبْلُ (عَلَقَةً)أى: دما أحمر بعد مضى أربعين يوما من النطفة

*وَ هِيَ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ -وَ هُوَ ظَهْرُهُ-وَ تَرَائِبِ الْمَرْأَةِ-وَ هِيَ عِظَامُ صَدْرِهَا مَا بَيْنَ التَّرْقُوَةِ إِلَى التَّنْدُوَةِ-فَصَارَتْ عَلَقَةً حَمْرَاءَ عَلَى شَكْلِ الْعَلَقَةِ مُسْتَطِيلَةً. قَالَ عِكْرِمَةُ:-وَ هِيَ دَمٌ.

(فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ)بعد أربعين يوما(مُضۡغَةٗ)أى: قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغ من صغرها.

(فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ)اللينة(عِظَٰمٗا)صلبة قد تخللت اللحم بحسب حاجة البدن إليها

*شَكَّلْنَاهَا ذَاتَ رَأْسٍ وَ يَدَيْنِ وَ رِجْلَيْنِ بِعِظَامِهَا وَ عَصَبِهَا وَ عُرُوقِهَا.

*البخارى 4935 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-«مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»
قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟
قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَ هُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَ مِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ»

*مسلم (2644) عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ
قَالَ:-"يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَيَقُولُ:-
يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ وَ يُكْتَبُ عَمَلُهُ وَ أَثَرُهُ وَ أَجَلُهُ وَ رِزْقُهُ ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَ لَا يُنْقَصُ "

*مسلم(2643)عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ:-حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺوَ هُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ":-
إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ
ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَ يُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ:
بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَ أَجَلِهِ وَ عَمَلِهِ وَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ فَوَالَّذِى لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَ بَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا
وَ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَ بَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا

(فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا)أى:جعلنا اللحم كسوة للعظام كما جعلنا العظام عمادا للحم و ذلك فى الأربعين الثالثة

(ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ)نفخ فيه الروح فانتقل من كونه جمادا إلى أن صار حيوانا

*ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوحَ فَتَحَرَّكَ وَ صَارَ{خَلْقًا آخَرَ}ذَا سَمْعٍ وَ بَصَرٍ وَ إِدْرَاكٍ وَ حَرَكَةٍ وَ اضْطِرَابٍ

(فَتَبَارَكَ)تعاظم و كثر خيره(ٱللَّهُ)

(أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ)(الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ* ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ)فخلقه كله حسن و الإنسان من أحسن مخلوقاته بل هو أحسنها على الإطلاق كما قال تعالى:-(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)
و لهذا كان خواصه أفضل المخلوقات و أكملها﴿١٤﴾

(ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ)الخلق و نفخ الروح (لَمَيِّتُونَ)فى أحد أطواركم و تنقلاتكم﴿١٥﴾

(ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ)يَعْنِي:النَّشْأَةَ الآخِرَةَ{ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ} [الْعَنْكَبُوت:20]

يَعْنِي:يَوْمَ الْمَعَادِ وَ قِيَامَ الْأَرْوَاحِ وَ الْأَجْسَادِ فَيُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ وَ يُوَفِّي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَ إِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ

فتجازون بأعمالكم حسنها و سيئها. قال تعالى:(أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى* أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى*أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)١٦

*لما ذكر تعالى خلق الآدمى ذكر سكنه و توفر النعم عليه من كل وجه فقال:–

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ) سقفا للبلاد و مصلحة للعباد

(سَبْعَ طَرَآئِقَ)سماوات طباقا كل طبقة فوق الأخرى قد زينت بالنجوم و الشمس و القمر و أودع فيها من مصالح الخلق ما أودع وَ هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[نُوح:15]

{اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنزلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطَّلَاق:12]

(وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ)فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق فعلمنا أيضا محيط بما خلقنا فلا نغفل مخلوقا و لا ننساه و لا نخلق خلقا فنضيعه، و لا نغفل عن السماء فتقع على الأرض و لا ننسى ذرة فى لجج البحار و جوانب الفلوات و لا دابة إلا سقنا إليها رزقها(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا

و كثيرا ما يقرن تعالى بين خلقه و علمه كقوله:-(أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ* بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ

لأن خلق المخلوقات من أقوى الأدلة العقلية على علم خالقها و حكمته١٧

وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۢ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾

(وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ)يكون رزقا لكم و لأنعامكم بقدر ما يكفيكم فلا ينقصه بحيث لا يكفى الأرض و الأشجار فلا يحصل منه المقصود و لا يزيده زيادة لا تحتمل بحيث يتلف المساكن و لا تعيش معه النباتات و الأشجار بل أنزله وقت الحاجة لنزوله ثم صرفه عند التضرر من دوامه

(فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ)أى:أنزلناه عليها فسكن و استقرو أخرج بقدرة منزله جميع الأزواج النباتية و أسكنه أيضا معدا فى خزائن الأرض بحيث لم يذهب نازلا حتى لا يوصل إليه و لا يبلغ قعره

(وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۢ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ)إما بأن لا ننزله

أو ننزله فيذهب نازلا لا يوصل إليه أو لا يوجد منه المقصود منه

و هذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته و يقدروا عدمها ماذا يحصل به من الضرر كقوله تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ[الملك:30] ﴿١٨﴾

(فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ)أى:–بذلك الماء(جَنَّٰتٖ)بساتين(مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ)

خص تعالى هذين النوعين مع أنه ينشئ منه غيرهما من الأشجار لفضلهما و منافعهما التي فاقت بها الأشجار

و لهذا ذكر العام فى قوله:–(لَّكُمۡ فِيهَا)أى: فى تلك الجنات

(فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ)من تين و أترج و رمان و تفاح و غيرها كَمَا قَالَ:-

{يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ[النَّحل: 11] 19

(وَشَجَرَةً)هى شجرة الزيتون أى: جنسها الزَّيْتُونَةَ.

(تَخۡرُجُ مِن طُورِ)الْجَبَلُ_إِنَّمَا يُسَمَّى طُورًا إِذَا كَانَ فِيهِ شَجَرٌ فَإِنْ عَرى عَنْهَا سُمِّىَ جَبَلا لَا طُورًا

وَ طُورُ(سَيۡنَآءَ)هُوَ طُورُ سِينِينَ وَ هُوَ الْجَبَلُ الَّذِى كَلَّم اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عليه السلام وَ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِى فِيهَا شَجَرُ الزَّيْتُونِ.

*خصت بالذكر لأن مكانها خاص فى أرض الشام و لمنافعها التى ذكر بعضها فى قوله:–

(تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ)أى: فيها الزيت الذى هو دهن يستعمل استعماله من الاستصباح به

*قَالَ بَعْضُهُمْ: الْبَاءُ زَائِدَةٌ وَ تَقْدِيرُهُ: تَنْبُتُ الدُّهْنَ كَمَا فِي قَوْلِ الْعَرَبِ:-أَلْقَى فَلَانٌ بِيَدِهِ أَىْ: يَدَهُ.

وَ أَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ يُضَمِّن الْفِعْلَ فَتَقْدِيرُهُ: تَخْرُجُ بِالدُّهْنِ أَوْ تَأْتِى بِالدُّهْنِ وَ لِهَذَا قَالَ:-

(وَصِبۡغٖ)يجعل إداما(لِّلۡأٓكِلِينَ)و غير ذلك من المنافع20

(وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ)و من نعمه عليكم أن سخر لكم الأنعام الإبل و البقر و الغنم

(لَعِبۡرَةٗ)للمعتبرين و منافع للمنتفعين

(نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا)من لبن يخرج من بين فرث و دم خالص سائغ للشاربين

(وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ)من أصوافها و أوبارها و أشعارها و جعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم و يوم إقامتكم (وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ)أفضل المآكل من لحم و شحم ﴿٢١﴾

(وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ)أى: جعلها سفنا لكم فى البر

(تُحۡمَلُونَ)عليها أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس كما جعل لكم السفن فى البحر تحملكم و تحمل متاعكم قليلا كان أو كثيرا

فالذى أنعم بهذه النعم و صنف أنواع الإحسان و أدر علينا من خيره المدرار هو الذى يستحق كمال الشكر و كمال الثناء و الاجتهاد فى عبوديته و أن لا يستعان بنعمه على معاصيه.

*يَذْكُرُ تَعَالَى مَا جَعَلَ لِخَلْقِهِ فِي الْأَنْعَامِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا الْخَارِجَةِ مِنْ بَيْنِ فرث وَ دَمٍ وَ يَأْكُلُونَ مِنْ حُمْلَانِهَا وَ يَلْبَسُونَ مِنْ أَصْوَافِهَا وَ أَوْبَارِهَا وَ أَشْعَارِهَا وَ يَرْكَبُونَ ظُهُورَهَا وَ يُحَمِّلُونَهَا الْأَحْمَالَ الثِّقَالَ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ عَنْهُمْ كَمَا قَالَ{وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ} [النَّحْل: 7] وَ قَالَ تَعَالَى{أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ71 وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ72 وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ} [يس] ﴿٧٣﴾

قصة نوح 23-30

(وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ)

يذكر تعالى رسالة عبده و رسوله نوح عليه السلام أول رسول أرسله لأهل الأرض فأرسله إلى قومه و هم يعبدون الأصنام

فأمرهم بعبادة الله وحده(فَقَالَ):-

(يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ)أى:أخلصوا له العبادة لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها.

(مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ)

فيه إبطال ألوهية غير الله و إثبات الإلهية لله تعالى لأنه الخالق الرازق الذى له الكمال كله و غيره بخلاف ذلك

(أَفَلَا تَتَّقُونَ)ما أنتم عليه من عبادة الأوثان و الأصنام التي صورت على صور قوم صالحين فعبدوها مع الله فاستمر على ذلك يدعوهم سرا و جهارا و ليلا و نهارا ألف سنة إلا خمسين عاما و هم لا يزدادون إلا عتوا و نفورا(٢٣)

(فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ)من قومه الأشراف و السادة المتبوعون

(ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ)-على وجه المعارضة لنبيهم نوح و التحذير من اتباعه - :-

(مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ)قصده حين ادعى النبوة أن يزيد عليكم فضيلة ليكون متبوعا و إلا فما الذي يفضله عليكم و هو من جنسكم؟

و هذه المعارضة لا زالت موجودة في مكذبى الرسل و قد أجاب الله عنها بجواب شاف على ألسنة رسله كما فى قوله:-(قالوا)أى:لرسلهم (إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ* قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

فأخبروا أن هذا فضل الله و منته فليس لكم أن تحجروا على الله و تمنعوه من إيصال فضله علينا

و قالوا هنا:-(وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً)و هذه أيضا معارضة بالمشيئة باطلة

فإنه و إن كان لو شاء لأنزل ملائكة فإنه حكيم رحيم حكمته و رحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس الآدميين لأن الملك لا قدرة لهم على مخاطبته و لا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل ثم يعود اللبس عليهم كما كان

و قولهم(مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا)أى بإرسال الرسول(فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ)

و أى حجة فى عدم سماعهم إرسال رسول فى آبائهم الأولين؟

لأنهم لم يحيطوا علما بما تقدم فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم و على تقدير أنه لم يرسل فيهم رسولا:-

1-فإما أن يكونوا على الهدى فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك

2-و إما أن يكونوا على غيره فليحمدوا ربهم و يشكروه أن خصهم بنعمة لم تأت آباءهم و لا شعروا بها و لا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سببا لكفرهم للإحسان إليهم (٢٤)

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ)مجنون(فَتَرَبَّصُوا بِهِ)انتظروا به(حَتَّىٰ حِينٍ)إلى أن يأتيه الموت

و هذه الشبه التى أوردوها معارضة لنبوة نبيهم دالة على شدة كفرهم و عنادهم و على أنهم في غاية الجهل و الضلال فإنها لا تصلح للمعارضة بوجه من الوجوه كما ذكرنا بل هى فى نفسها متناقضة متعارضة فقوله

(مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ)

أثبتوا أن له عقلا يكيدهم به ليعلوهم و يسودهم و يحتاج–مع هذا–أن يحذر منه لئلا يغتر به فكيف يلتئم مع قولهم (إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ)

و هل هذا إلا من مشبه ضال منقلب عليه الأمر قصده الدفع بأي طريق اتفق له غير عالم بما يقول؟

و يأبى الله إلا أن يظهر خزي من عاداه و عادى رسله(٢٥)

فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فرارا (قَالَ) :–

(رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)فاستنصر ربه عليهم غضبا لله حيث ضيعوا أمره و كذبوا رسوله و قال

(رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا* إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا) قال تعالى:–

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)(٢٦)

(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ)عند استجابتنا له سببا و وسيلة للنجاة قبل وقوع أسبابه

(أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ)السفينة

(بِأَعْيُنِنَا)و أنت فى حفظنا وكلاءتنا بحيث نراك و نسمعك.

(وَوَحْيِنَا)بأمرنا لك و معونتنا(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا)بإرسال الطوفان الذي عذبوا به

(وَفَارَ التَّنُّورُ)أى:–فارت الأرض و تفجرت عيونا حتى محل النار الذى لم تجر العادة إلا ببعده عن الماء

(فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)

أى: أدخل فى الفلك من كل جنس من الحيوانات ذكرا و أنثى تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات التى اقتضت الحكمة الربانية إيجادها فى الأرض

(وَأَهْلَكَ)أدخلهم

(إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ)كابنه

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا)

أى: لا تدعنى أن أنجيهم فإن القضاء و القدر قد حتم(إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)(٢٧)

. . . .

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾

(فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ)علوت

(أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ)و استقلت بكم فى تيار الأمواج و لجج اليم فاحمدوا الله على النجاة و السلامة.

(فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا)و هذا تعليم منه له و لمن معه أن يقولوا هذا شكرا له و حمدا على نجاتهم

(مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ) فى عملهم و عذابهم28

(وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ)أى:و بقيت عليكم نعمة أخرى فادعوا الله فيها و هى أن ييسر الله لكم منزلا مباركا فاستجاب الله دعاءه قال الله:–(وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

إلى أن قال:–(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ)29

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ)أى:–فى هذه القصة(لَءَايَٰتٍ)تدل على أن الله وحده المعبود و على أن رسوله نوحا صادق و أن قومه كاذبون و على رحمة الله بعباده حيث حملهم فى صلب أبيهم نوح فى الفلك لما غرق أهل الأرض.

و الفلك أيضا من آيات الله قال تعالى:(وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

و لهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات و مطالب

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)لمختبرين الأمم بإرسال الرسل إليهم قبل وقوع العقوبة بهم30

*لما ذكر نوحا و قومه و كيف أهلكهم قال:–

(ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ) لظاهر أنهم « ثمود » قوم صالح ﷺلأن هذه القصة تشبه قصتهم31

قصة هود (على الأرجح) 31-44

(فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ)

من جنسهم يعرفون نسبه و حسبه و صدقه ليكون ذلك أسرع لانقيادهم إذا كان منهم و أبعد عن اشمئزازهم فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أممهم

(أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ)فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة و هى أول دعوة يدعون بها أممهم الأمر بعبادة الله و الإخبار أنه المستحق لذلك و النهى عن عبادة ما سواه و الإخبار ببطلان ذلك وفساده و لهذا قال:–

(أَفَلَا تَتَّقُونَ)ربكم فتجتنبوا هذه الأوثان و الأصنام32

(وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا)

أى: قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر و المعاندة و أطغاهم ترفهم فى الحياة الدنيا معارضة لنبيهم و تكذيبا و تحذيرا منه:–

(مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ)أى: من جنسكم

(يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ)فما الذى يفضله عليكم؟فهلا كان ملكا لا يأكل و لا يشرب33

(وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ)

أى: إن تبعتموه و جعلتموه لكم رئيسا و هو مثلكم إنكم لمسلوبو العقل نادمون على ما فعلتم.

و هذا من العجب فإن الخسارة و الندامة حقيقة لمن لم يتابعه و لم ينقد له. و الجهل و السفه العظيم لمن تكبر عن الانقياد لبشر خصه الله بوحيه و فضله برسالته و ابْتُلِي بعبادة الشجر و الحجر.

وهذا نظير قولهم:(قَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ* أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)34

*فلما أنكروا رسالته و ردوها أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت و المجازاة على الأعمال فقالوا:–

(أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ)بعيد بعيد

(لِمَا تُوعَدُونَ)من البعث بعد أن تمزقتم و كنتم ترابا و عظاما فنظروا نظرا قاصرا و رأوا هذا بالنسبة إلى قدرهم غير ممكن فقاسوا قدرة الخالق بقدرهم تعالى الله فأنكروا قدرته على إحياء الموتى و عجزوه غاية التعجيز و نسوا خلقهم أول مرة و أن الذى أنشأهم من العدم فإعادته لهم بعد البلى أهون عليه و كلاهما هين لديه فلم لا ينكرون أول خلقهم و يكابرون المحسوسات و يقولون إننا لم نزل موجودين حتى يسلم لهم إنكارهم للبعث و ينتقلوا معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟

و هنا دليل آخر و هو أن الذى أحيا الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير

و ثم دليل آخر وهو ما أجاب به المنكرين للبعث فى قوله:–

(بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ* أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)

فقال فى جوابهم(قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ)أى فى البلى(وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ)36

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا)أى يموت أناس و يحيا أناس(وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)37

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)(إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ)

فلهذا أتى بما أتى به من توحيد الله و إثبات المعاد (فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ)

أى ارفعوا عنه العقوبة بالقتل و غيره احتراما له و لأنه مجنون غير مؤاخذ بما يتكلم به أى فلم يبق بزعمهم الباطل مجادلة معه لصحة ما جاء به فإنهم قد عرفوا بطلانه و إنما بقى الكلام هل يوقعون به أم لا؟

فبزعمهم أن عقولهم الرزينة اقتضت الإبقاء عليه و ترك الإيقاع به مع قيام الموجب فهل فوق هذا العناد و الكفر غاية؟

(وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ)38

و لهذا لما اشتد كفرهم و لم ينفع فيهم الإنذار دعا عليهم نبيهم فـ(قَالَ):–

(رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)أى بإهلاكهم و خزيهم الدنيوى قبل الآخرة فَأَجَابَ دُعَاءَهُ:-

(قَالَ)الله مجيبا لدعوته(عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ)بِمُخَالَفَتِكَ وَ عِنَادِكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ)لا بالظلم و الجور بل بالعدل و ظلمهم أخذتهم الصيحة فأهلكتهم عن آخرهم

*وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ صَيْحَةٌ مَعَ الرِّيحِ الصَّرْصِرِ الْعَاصِفِ الْقَوِيِّ الْبَارِدَةِ

{تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ}[الأحقاف: 25]

(فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً)أى هما يبسا بمنزلة غثاء السيل الملقى فى جنبات الوادى و قال فى الآية الأخرى:–

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)

(فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)أى أتبعوا مع عذابهم البعد و اللعنة و الذم من العالمين كَقَوْلِهِ:-

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}[الزخرف:76](فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ)أى:–من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين(قُرُونًا)أممًا(آخَرِينَ)﴿٤٢﴾

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

(مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ)كل أمة فى وقت مسمى و أجل محدود لا تتقدم عنه و لا تتأخر﴿٤٣﴾

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا)و أرسلنا إليهم رسلا متتابعة لعلهم يؤمنون و ينيبون

(كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ)فلم يزل الكفر و التكذيب دأب الأمم العصاة و الكفرة البغاة كلما جاء أمة رسولها كذبوه مع أن كل رسول يأتى من الآيات ما يؤمن على مثله البشر بل مجرد دعوة الرسل و شرعهم يدل على حقية ما جاءوا به كَقَوْلِهِ تَعَالَى:-{يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}[يس:30]

(فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا)

بالهلاك فلم يبق منهم باقية و تعطلت مساكنهم من بعدهم كَقَوْلِهِ:{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ}[الإِسْرَاءِ: 17]

(وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ)

يتحدث بهم من بعدهم و يكونون عبرة للمتقين و نكالا للمكذبين و خزيا عليهم مقرونا بعذابهم.

(فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ)ما أشقاهم!!. و تعسا لهم ما أخسر صفقتهم!!﴿٤٤﴾

*مر عليَّ منذ زمان طويل كلام لبعض العلماء لا يحضرنى الآن اسمه و هو أنه بعد بعث موسى و نزول التوراة رفع الله العذاب عن الأمم أى: عذاب الاستئصال و شرع للمكذبين المعاندين الجهاد و لم أدر من أين أخذه فلما تدبرت هذه الآيات مع الآيات التى فى سورة القصص تبين لى وجهه أما هذه الآيات فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك

قصة موسى و هارون و عيسى 45-50

ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم و أنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس و لا يرد على هذا إهلاك فرعون فإنه قبل نزول التوراة و أما الآيات التى فى سورة القصص فهى صريحة جدا فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال:-

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية و أخبر أنه أنزله بصائر للناس و هدى و رحمة

و لعل من هذا ما ذكر الله في سورة « يونس »من قوله:-(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ*ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ) الآيات و الله أعلم

فقوله(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ)بن عمران كليم الرحمن (وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ)حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله

(بِـَٔايَـٰتِنَا)الدالة على صدقهما وصحة ما جاءا به

(وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ)حجة بينة من قوتها أن تقهر القلوب و تتسلط عليها لقوتها فتنقاد لها قلوب المؤمنين و تقوم الحجة البينة على المعاندين و هذا كقوله(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ)

و لهذا رئيس المعاندين عرف الحق و عاند(فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ)أى بتلك الآيات البينات (فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) فـــ(قال)موسى(لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا وقال تعالى وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)و قال هنا:-

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ)45

(إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ)كـــــــ« هامان »و غيره من رؤسائهم

(فَٱسْتَكْبَرُوا۟)أى تكبروا عن الإيمان بالله و استكبروا على أنبيائه

(وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ)أى وصفهم العلو و القهر و الفساد فى الأرض 46

فلهذا صدر منهم الاستكبار ذلك غير مستكثر منهم(فَقَالُوٓا۟)كبرا و تيها و تحذيرا لضعفاء العقول و تمويها

(أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا)كما قاله من قبلهم سواء بسواء تشابهت قلوبهم في الكفر فتشابهت أقوالهم و أفعالهم و جحدوا منة الله عليهما بالرسالة (وَقَوْمُهُمَا)أى بنو إسرائيل(لَنَا عَـٰبِدُونَ)أى معبدون بالأعمال و الأشغال الشاقة كما قال تعالى (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين ؟« و كيف يكون هؤلاء رؤساء علينا ؟ »

و نظير قولهم قول قوم نوح عليه السلام (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ) من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق و أنه تكذيب و معاندة 47و لهذا قال:-

(فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ)فى الغرق فى البحر و بنو إسرائيل ينظرون

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)بعدما أهلك الله فرعون و خلص الشعب الإسرائيلى مع موسى و تمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم و إظهار شعائره وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة فذهب لميقات ربه قال الله تعالى(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ) و لهذا قال هنا:-

(لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)أى بمعرفة تفاصيل الأمر و النهى و الثواب و العقاب و يعرفون ربهم بأسمائه و صفاته49

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً)أى:و امتننا على عيسى ابن مريم و جعلناه و أمه من آيات الله العجيبة حيث حملته و ولدته من غير أب و تكلم فى المهد صبيا و أجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى

(وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ)مكان مرتفع و هذا- و الله أعلم- وقت وضعها

(ذَاتِ قَرَارٍ)مستقر و راحة

(وَمَعِينٍ)ماء جار بدليل قوله:(قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ)أى: تحت المكان الذى أنت فيه لارتفاعه(سَرِيًّا) [مريم:24]

أى: نهرا و هو المعين(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا* فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا) ﴿٥٠﴾

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا)هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات التى هى الرزق الطيب الحلال و شكر الله بالعمل الصالح الذي به يصلح القلب و البدن و الدنيا و الآخرة.

*فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْحَلَالَ عَونَ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَقَامَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِهَذَا أَتَمَّ الْقِيَامِ. وَ جَمَعُوا بَيْنَ كُلِّ خَيْرٍ قَوْلًا وَ عَمَلًا وَ دَلَالَةً وَ نُصْحًا فَجَزَاهُمُ اللَّهُ عَنِ الْعِبَادِ خَيْرًا.

*مسلم(1015)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

" أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَ إِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ

فَقَالَ:{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[المؤمنون: 51]

وَ قَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: 172]

ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَ مَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَ مَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَ مَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَ غُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ "

و يخبرهم(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)فكل عمل عملوه و كل سعى اكتسبوه فإن الله يعلمه و سيجازيهم عليه أتم الجزاء و أفضله

*فدل هذا على أن الرسل كلهم متفقون على إباحة الطيبات من المآكل و تحريم الخبائث منها و أنهم متفقون على كل عمل صالح و إن تنوعت بعض أجناس المأمورات و اختلفت بها الشرائع فإنها كلها عمل صالح و لكن تتفاوت بتفاوت الأزمنة.

و لهذا الأعمال الصالحة التى هى صلاح فى جميع الأزمنة قد اتفقت عليها الأنبياء و الشرائع

كالأمر بتوحيد الله و إخلاص الدين له و محبته و خوفه و رجائه و البر و الصدق و الوفاء بالعهد و صلة الأرحام و بر الوالدين و الإحسان إلى الضعفاء و المساكين و اليتامى و الحنو و الإحسان إلى الخلق و نحو ذلك من الأعمال الصالحة

و لهذا كان أهل العلم و الكتب السابقة و العقل حين بعث الله محمدا ﷺ يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به و ينهى عنه كما جرى لهرقل و غيره فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء الذين من قبله و نهى عما نهوا عنه دل على أنه من جنسهم بخلاف الكذاب فلا بد أن يأمر بالشر وينهى عن الخير ﴿٥١﴾

و لهذا قال تعالى للرسل:-

اختلاف الناس بعد الرسل 53-56

(وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ)جماعتكم – يا معشر الرسل-(أُمَّةً)جماعة

(وَٰحِدَةً)متفقة على دين واحد و ربكم واحد.

(وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ)بامتثال أوامرى و اجتناب زواجرى.

و قد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين لأنهم بهم يقتدون و خلفهم يسلكون فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

فالواجب من كل المنتسبين إلى الأنبياء و غيرهم أن يمتثلوا هذا و يعملوا به و لكن أبى الظالمون المفترقون إلا عصيانا﴿٥٢﴾و لهذا قال:-

(فَتَقَطَّعُوٓاْ)أى:-تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء(أَمۡرَهُم)دينهم(بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗا)قطعا

(كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ)عندهم من العلم و الدين(فَرِحُونَ)يزعمون أنهم المحقون و غيرهم على غير الحق مع أن المحق منهم من كان على طريق الرسل من أكل الطيبات و العمل الصالح و ما عداهم فإنهم مبطلون﴿٥٣﴾

(فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ)وسط جهلهم بالحق و دعواهم أنهم هم المحقون

(حَتَّىٰ حِينٍ)أى:إلى أن ينزل العذاب بهم فإنهم لا ينفع فيهم وعظ و لا يفيدهم زجر و كيف يفيد من يزعم أنه على الحق و يطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟.

*كَمَا قَالَ{فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}[الطَّارِق: 17] وَ قَالَ{ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}[الْحِجْرِ: 3]﴿٥٤﴾

(أَيَحۡسَبُونَ)أيظنون(أَنَّمَا نُمِدُّهُم)نزدهم إياهم(بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ)دليل على أنهم من أهل الخير و السعادة و أن لهم خير الدنيا و الآخرة؟﴿٥٥﴾

(نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ)و هذا مقدم لهم ليس الأمر كذلك.كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ فِي قَوْلِهِمْ:-

{نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ}[سبأ:35]

لقد أخطؤوا فِي ذَلِكَ وَ خَابَ رَجَاؤُهُمْ بَلْ إِنَّمَا نَفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا وَ إِنْظَارًا وَ إِمْلَاءً وَ لِهَذَا قَالَ:-

(بَل لَّا يَشۡعُرُونَ)أنما نملي لهم و نمهلهم و نمدهم بالنعم ليزدادوا إثما و ليتوفر عقابهم في الآخرة و ليغتبطوا بما أوتوا (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) كَمَا قَالَ{فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}[التَّوْبَة: 55] وَ قَالَ{إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا} [آلِ عِمْرَانَ: 178]

وَ قَالَ تَعَالَى: {فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ44 وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}[الْقَلَم]

وَ قَالَ: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا* وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا* وَبَنِينَ شُهُودًا* وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا* ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ* كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا}[الْمُدَّثِّر: 11-16] وَ قَالَ{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} [سَبَأٍ: 37]و قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ:-

{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ}

قَالَ: مُكِرَ وَ اللَّهِ بِالْقَوْمِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَ أَوْلَادِهِمْ يَا ابْنَ آدَمَ فَلَا تَعْتَبِرِ النَّاسَ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَوْلَادِهِمْ وَ لَكِنِ اعْتَبِرْهُمْ بِالْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ(٥٦)

*لما ذكر تعالى الذين جمعوا بين الإساءة و الأمن الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم و فضلهم ذكر الذين جمعوا بين الإحسان و الخوف فقال:-

(إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ)وجلون مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم خوفـا:-

1-أن يضع عليهم عدله فلا يبقى لهم حسنة

2-و خوفا على إيمانهم من الزوال

3-و سوء ظن بأنفسهم:-أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى

4-و معرفة منهم بربهم و ما يستحقه من الإجلال و الإكرام

*و خوفهم و إشفاقهم يوجب لهم:-الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب و التقصير في الواجبات(٥٧)

(وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ)يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَ الشَّرْعِيَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ:{وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ} [التَّحْرِيم: 12]

*أي: إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا و يتفكرون أيضا في الآيات القرآنية و يتدبرونها فيبين لهم من معانى القرآن و جلالته و اتفاقه و عدم اختلافه و تناقضه و ما يدعو إليه من معرفة الله و خوفه و رجائه و أحوال الجزاء فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان ما لا يعبر عنه اللسان.

و يتفكرون أيضا فى الآيات الأفقية كما فى قوله:-

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ} إلى آخر الآيات(٥٨)

(وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ)لا شركا جليا:-كاتخاذ غير الله معبودا يدعوه و يرجوه

*و لا شركا خفيا:-كالرياء و نحوه بل هم مخلصون لله في أقوالهم و أعمالهم و سائر أحوالهم(٥٩)

وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

(وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ)يعطون من أنفسهم مما أمروا به

(مَآ ءَاتَواْ)من كل ما يقدرون عليه من صلاة و زكاة و حج و صدقة و غير ذلك

(و)مع هذا(وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ)خائفة(ألا تقبل منهم)

(أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ)خائفة عند عرض أعمالها عليه و الوقوف بين يديه أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله لعلمهم بربهم و ما يستحقه من أصناف العبادات.

*الترمذى 3175-عن عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺقَالَتْ:سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ:-
{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [المؤمنون: 60]قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَ يَسْرِقُونَ؟ قَالَ:-
" لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَ لَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَ يُصَلُّونَ وَ يَتَصَدَّقُونَ وَ هُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المؤمنون: 61] "

و قال الحسن:-لقد أدركنا أقواما كانوا من سناتهم أن ترد أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها)﴿٦٠﴾

(أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ)

أى: فى ميدان التسارع فى أفعال الخير همهم ما يقربهم إلى الله و إرادتهم مصروفة فيما ينجى من عذابه فكل خير سمعوا به أو سنحت لهم الفرصة إليه انتهزوه و بادروه قد نظروا إلى أولياء الله و أصفيائه أمامهم و يمنة و يسرة يسارعون فى كل خير و ينافسون فى الزلفى عند ربهم فنافسوهم.

و لما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجده و تشميره و قد لا يسبق لتقصيره أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال:-

(وَهُمْ لَهَا)أى:-للخيرات(سَٰبِقُونَ)قد بلغوا ذروتها و تباروا هم و الرعيل الأول

و مع هذا قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة أنهم سابقون﴿٦١﴾

و لما ذكر مسارعتهم إلى الخيرات و سبقهم إليها ربما وهم واهم أن المطلوب منهم و من غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر أخبر تعالى:-

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)أى:-بقدر ما تسعه و يفضل من قوتها عنه ليس مما يستوعب قوتها رحمة منه و حكمة لتيسير طريق الوصول إليه و لتعمر جادة السالكين في كل وقت إليه.

(وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ)و هو الكتاب الأول الذى فيه كل شيء و هو يطابق كل واقع يكون فلذلك كان حقا

(وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)أى لا ينقص من إحسانهم و لا يزداد فى عقوبتهم و عصيانهم﴿٦٢﴾

(بَلْ قُلُوبُهُمْ)أى:-قلوب المكذبين(فِي)وسط(غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا)الجهل و الظلم و الغفلة و الإعراض تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن فلا يهتدون به و لا يصل إلى قلوبهم منه شيء.

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا۝ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا)

فلما كانت قلوبهم فى غمرة منه عملوا بحسب هذا الحال من الأعمال الكفرية و المعاندة للشرع ما هو موجب لعقابهم

من صفات الكافرين و أعمالهم و أعمالهم 63-77

(و)لكن(وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ) هذه الأعمال

(ذَٰلِكَ)الشرك(هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ)أى فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم

فإن الله يمهلهم ليعملوا هذه الأعمال التى بقيت عليهم مما كتب عليهم فإذا عملوها و استوفوها انتقلوا بشر حالة إلى غضب الله و عقابه

*قَدْ كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَعْمَالٌ سَيِّئَةٌ لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا قَبْلَ مَوْتِهِمْ لَا مَحَالَةَ لِتَحِقَّ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ
*البخارى 3208 - عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:-
حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِﷺوَ هُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ:-
إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ(يضم بعضه إلى بعض أو المراد بالجمع مكث البويضة بالرحم بعد تلقيحها بالنطفة.)فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا
ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً(دما غليظا جامدا)مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً(قطعة لحم قدر ما يمضغ) مِثْلَ ذَلِكَ
ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَ يُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَ رِزْقَهُ وَ أَجَلَهُ وَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ
(حسب ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته وما علمه سبحانه مما سيكون من هذا المكلف من أسباب السعادة أو الشقاوة)
ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ

فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ(الذى كتبه الملك وهو فى بطن أمه)فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَ يَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ(يغلب)عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ)﴿٦٣﴾

(حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم)متنعميهم الذين ما اعتادوا إلا الترف و الرفاهية و النعيم و لم تحصل لهم المكاره

فإذا أخذناهم (بِٱلۡعَذَابِ)و وجدوا مسه

(إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ)يصرخون و يتوجعون لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه و يستغيثون﴿٦٤﴾فيقال لهم:-

(لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ)

و إذا لم تأتهم النصرة من الله و انقطع عنهم الغوث من جانبه لم يستطيعوا نصر أنفسهم و لم ينصرهم أحد

*كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلا11 إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالا وَجَحِيمًا12وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا}

[الْمُزَّمِّل]وَ قَالَ تَعَالَى:{كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ} [ص: 3] ﴿٦٥﴾

*فكأنه قيل ما السبب الذي أوصلهم إلى هذا الحال؟ قال:-

(قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ)لتؤمنوا بها و تقبلوا عليها فلم تفعلوا ذلك

(فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ)راجعين القهقرى إلى الخلف

و ذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون و بالإعراض عنه يستأخرون و ينزلون إلى أسفل سافلين﴿٦٦﴾

(مُسۡتَكۡبِرِينَ)أى متكبرين على الناس بسببه تقولون نحن أهل الحرم فنحن أفضل من غيرنا و أعلى

قال المفسرون معناه مستكبرين به الضمير يعود إلى البيت المعهود عند المخاطبين أو الحرم

(بِهِۦ سَٰمِرًا)أى:- جماعة يتحدثون بالليل حول البيت

(تَهۡجُرُونَ)أى تقولون الكلام الهجر الذى هو القبيح فى هذا القرآن فالمكذبون كانت طريقتهم فى القرآن

الإعراض عنه و يوصى بعضهم بعضا بذلك

تقولون: نحن أهله لا نُغْلَب فيه و تتسامرون حوله بالسيِّئ من القول.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)و قال الله عنهم:-

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ* وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ* وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ) (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ)

فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل لا جرم حقت عليهم العقوبة و لما وقعوا فيها لم يكن لهم ناصر ينصرهم

و لا مغيث ينقذهم و يوبخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة

*فِي تَفْسِيرِهِ قَوْلَانِ أَحَدُهُمَا:-

أَنَّ مُسْتَكْبِرِينَ حَالٌ مِنْهُمْ حِينَ نُكُوصِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَ إِبَائِهِمْ إِيَّاهُ اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِ وَ احْتِقَارًا لَهُ وَلِأَهْلِهِ

فَعَلَى هَذَا الضَّمِيرُ فِي {بِهِۦ} فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهُمَا :-أَنَّهُ الْحَرَمُ بِمَكَّةَ ذُمُّوا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمُرُونَ بالهُجْرِ مِنَ الْكَلَامِ.

وَ الثَّانِي:-أَنَّهُ ضَمِيرُ الْقُرْآنِ:-كَانُوا يَسْمُرُونَ وَ يَذْكُرُونَ الْقُرْآنَ بِالْهَجْرِ مِنَ الْكَلَامِ: "إِنَّهُ سِحْرٌ إِنَّهُ شِعْرٌ إِنَّهُ كَهَانَةٌ" إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأقوال الباطلة.

وَ الثَّالِثُ:-أَنَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺكَانُوا يَذْكُرُونَهُ فِي سَمَرِهِمْ بِالْأَقْوَالِ الْفَاسِدَةِ وَ يَضْرِبُونَ لَهُ الْأَمْثَالَ الْبَاطِلَةَ مِنْ أَنَّهُ:- شَاعِرٌ أَوْ كَاهِنٌ أَوْ سَاحِرٌ أَوْ كَذَّابٌ أَوْ مَجْنُونٌ. وَ كُلُّ ذَلِكَ بَاطِلٌ بَلْ هُوَ عَبْدُ اللّٰهِ وَ رَسُولُهُ الَّذِى أَظْهَرَهُ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْحَرَمِ صَاغِرِينَ أَذِلَّاءَ﴿٦٧﴾

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ)أفلا يتفكرن فى القرآن و يتأملونه و يتدبرونه أى فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان و لمنعهم من الكفر و لكن المصيبة التى أصابتهم بسبب إعراضهم عنه

و دل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير و يعصم من كل شر و الذى منعهم من تدبره أن على قلوبهم أقفالها

(أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ)أى أومنعهم من الإيمان أنه جاءهم رسول و كتاب ما جاء(ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ) فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين و عارضوا كل ما خالف ذلك

و لهذا قالوا هم و من أشبههم من الكفار ما أخبر الله عنهم ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ فأجابهم بقوله﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق فأجابوا بحقيقة أمرهم قَالُوا(إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)﴿٦٨﴾

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ)

أي أومنعهم من اتباع الحق أن رسولهم محمدا ﷺ غير معروف عندهم فهم منكرون له؟

يقولون لا نعرفه و لا نعرف صدقه دعونا حتى ننظر حاله و نسأل عنه من له به خبرة أي لم يكن الأمر كذلك فإنهم يعرفون الرسولﷺ معرفة تامة صغيرهم و كبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل و يعرفون صدقه و أمانته حتى كانوا يسمونه قبل البعثة « الأمين »فلم لا يصدقونه حين جاءهم بالحق العظيم و الصدق المبين؟﴿٦٩﴾

(أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ)جنون فلهذا قال ما قال و المجنون غير مسموع منه و لا عبرة بكلامه لأنه يهذى بالباطل و الكلام السخيف قال الله فى الرد عليهم فى هذه المقالة

(بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ)أى بالأمر الثابت الذي هو صدق و عدل لا اختلاف فيه و لا تناقض

فكيف يكون من جاء به به جنة؟

و هلا يكون إلا فى أعلى درج الكمال من العلم و العقل و مكارم الأخلاق و أيضا فإن فى هذا الانتقال مما تقدم أي بل الحقيقة التى منعتهم من الإيمان أنه جاءهم بالحق

(وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ)و أعظم الحق الذى جاءهم به إخلاص العبادة لله وحده و ترك ما يعبد من دون الله و قد علم كراهتهم لهذا الأمر و تعجبهم منه فكون الرسول أتى بالحق و كونهم كارهين للحق بالأصل

هو الذى أوجب لهم التكذيب بالحق لا شكا و لا تكذيبا للرسول كما قال تعالى:–

(فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

فإن قيل لم لم يكن الحق موافقا لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا و يسرعوا الانقياد؟﴿٧٠﴾أجاب تعالى بقوله:–

(وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ)

و وجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم و الكفر و الفساد من الأخلاق و الأعمال

فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات و الأرض لفساد التصرف و التدبير المبنى على الظلم و عدم العدل

فالسماوات و الأرض ما استقامتا إلا بالحق و العدل

(بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ)

أى:–بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير الذى به فخرهم و شرفهم حين يقومون به و يكونون به سادة الناس

(فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ)شقاوة منهم و عدم توفيق(نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ){نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ}[الحشر: 19]

فالقرآن و من جاء به أعظم نعمة ساقها الله إليهم فلم يقابلوها إلا بالرد و الإعراض فهل بعد هذا الحرمان

حرمان؟ و هل يكون وراءه إلا نهاية الخسران؟﴿٧١﴾

(أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ)أومنعهم من اتباعك يا محمد أنك تسألهم على الإجابة(خَرۡجًا)أجرا(فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ)

يتكلفون من اتباعك بسبب ما تأخذ منهم من الأجر و الخراج ليس الأمر كذلك

(فَخَرَاجُ)فثواب و عطاء(رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ)فلا يَقدر أحد أن يَرزق مثل رزقه سبحانه وتعالى.

*و هذا كما قال الأنبياء لأممهم:–يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الله

أى: ليسوا يدعون الخلق طمعا فيما يصيبهم منهم من الأموال

و إنما يدعون نصحا لهم و تحصيلا لمصالحهم بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم فجزاهم الله عن أممهم

خير الجزاء و رزقنا الاقتداء بهم فى جميع الأحوال.

*أَيْ أَنْتَ لَا تَسْأَلُهُمْ أُجْرَةً وَ لَا جُعْلًا وَ لَا شَيْئًا عَلَى دَعْوَتِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الْهُدَى بَلْ أَنْتَ فِي ذَلِكَ تَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ جَزِيلَ ثَوَابِهِ كَمَا قَالَ:{قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ}[سَبَأٍ: 47] وَ قَالَ:

{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}[ص: 86]وَ قَالَ:{قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}[الشُّورَى: 23]

وَ قَالَ{وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ20 اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[يس]﴿٧٢﴾

(وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ)

ذكر الله تعالى فى هذه الآيات الكريمات كل سبب موجب للإيمان و ذكر الموانع و بين فسادها واحدا بعد

واحد فذكر من الموانع أن قلوبهم فى غمرة و أنهم لم يدبروا القول و أنهم اقتدوا بآبائهم

و أنهم قالوا: برسولهم جنة كما تقدم الكلام عليها

و ذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم:-

1-تدبر القرآن

2-و تلقى نعمة الله بالقبول

3-و معرفة حال الرسول محمد ﷺ و كمال صدقه و أمانته و أنه لا يسألهم عليه أجرا

و إنما سعيه لنفعهم و مصلحتهم و أن الذى يدعوهم إليه صراط مستقيم سهل على العاملين لاستقامته

موصل إلى المقصود من قرب حنيفية سمحة حنيفية فى التوحيد سمحة فى العمل

فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم موجب لمن يريد الحق أن يتبعك لأنه مما تشهد العقول و الفطر بحسنه

و موافقته للمصالح﴿٧٣﴾

(وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ)فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟

فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم و يكفيهم عن متابعتك لأنهم(عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ)متجنبون منحرفون عن الطريق

الموصل إلى الله و إلى دار كرامته ليس فى أيديهم إلا ضلالات و جهالات.

و هكذا كل من خالف الحق لا بد أن يكون منحرفا في جميع أموره قال تعالى:-

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)﴿٧٤﴾

۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾

يبين الله شدة تمردهم و عنادهم و أنهم إذا أصابهم الضر دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه فقال:-

(وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ)بعدما يدعوا الله أن يكشفه عنهم

(لَّلَجُّواْ)استمروا(فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ)يجولون فى كفرهم(يَعۡمَهُونَ)يتحيرون يترددون.

كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك و أنهم يدعون مخلصين له الدين و ينسون ما يشركون به فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بالشرك و غيره.

*يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غِلَظِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ بِأَنَّهُ لَوْ أَرَاحَ عِلَلَهُمْ وَ أَفْهَمَهُمُ الْقُرْآنَ لَمَا انْقَادُوا لَهُ وَ لَاسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَ عِنَادِهِمْ وَ طُغْيَانِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}[الأَنْفَال: 23] 75

(وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ)الجوع الذى أصابهم سبع سنين و أن الله ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه بالذل و الاستسلام فلم ينجع فيهم و لا نجح منهم أحد

(فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ)خضعوا و ذلوا(لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)يفتقرون إليه

بل مر عليهم ذلك ثم زال كأنه لم يصبهم لم يزالوا فى غيهم و كفرهم و لكن وراءهم العذاب الذى لا يرد

*كَمَا قَالَ تَعَالَى:{فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأَنْعَام: 43]

*الطبرى عن ابن عباس ﵄قال: جاء أبو سفيان إلى النبىّ ﷺ فقال:-

يا محمد أنشدك الله و الرحم فقد أكلنا العلهز! يعنى الوبر و الدم فأنزل الله:-

(ولقد أَخَذنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)

*البخارى 4693 -عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ:-أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا أَبْطَئُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺالإِسْلاَمِ

قَالَ: «اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا العِظَامَ

حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى بَيْنَهُ وَ بَيْنَهَا مِثْلَ الدُّخَانِ قَالَ اللَّهُ:-

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ)[الدخان: 10]قَالَ اللَّهُ:-{إِنَّا كَاشِفُو العَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} [الدخان: 15]

أَفَيُكْشَفُ عَنْهُمُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟وَ قَدْ مَضَى الدُّخَانُ وَ مَضَتِ البَطْشَةُ

*وَ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ وَهْبِ بْنِ عُمَرَ بْنِ كَيْسَانَ قَالَ: حُبِسَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَبْنَاءِ:-أَلَا أُنْشِدُكَ بَيْتًا مِنْ شِعْرٍ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟فَقَالَ وَهْبٌ:-

نَحْنُ فِي طَرَفٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ:{وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ}

قَالَ: وَ صَامَ وَهْبٌ ثَلَاثًا مُتَوَاصِلَةً فَقِيلَ لَهُ: مَا هَذَا الصَّوْمُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟

قَالَ: أَحَدَث لَنَا فَأَحْدَثْنَا. يَعْنِى: أُحْدِثَ لَنَا الْحَبْسُ فَأَحْدَثْنَا زِيَادَةَ عِبَادَةٍ76

(حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ)كالقتل يوم بدر و غيره

(إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ)آيسون من كل خير قد حضرهم الشر و أسبابه

فليحذروا قبل نزول عذاب الله الشديد الذى لا يُرد بخلاف مجرد العذاب فإنه ربما أقلع عنهم كالعقوبات

الدنيوية التى يؤدب الله بها عباده. قال تعالى فيها:-

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)77

*يخبر تعالى بمننه على عباده الداعية لهم إلى شكره و القيام بحقه فقال:–

(وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ)لتدركوا به المسموعات فتنتفعوا فى دينكم و دنياكم

بعض مظاهر قدرة الله 78-80

(وَٱلۡأَبۡصَٰرَ)لتدركوا بها المبصرات فتنتفعوا بها في مصالحكم.

(وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ)العقول التى تدركون بها الأشياء و تتميزون بها عن البهائم

فلو عدمتم السمع و الأبصار و العقول بأن كنتم صما عميا بكما ماذا تكون حالكم؟

و ماذا تفقدون من ضرورياتكم و كمالكم؟ أفلا تشكرون الذى من عليكم بهذه النعم فتقومون بتوحيده و طاعته؟

(قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ)و لكنكم قليل شكركم مع توالى النعم عليكم﴿٧٨﴾

(وَهُوَ)تعالى(ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ)بثكم(فِي ٱلۡأَرۡضِ)

أى:–فى أقطارها و جهاتها و سلطكم على استخراج مصالحها و منافعها و جعلها كافية لمعايشكم و مساكنكم

(وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ)

بعد موتكم فيجازيكم بما عملتم في الأرض من خير و شر و تحدث الأرض التي كنتم فيها بأخبارها﴿٧٩﴾

(وَهُوَ)تعالى وحده(ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ)المتصرف فى الحياة و الموت هو الله وحده

(وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ)أى: تعاقبهما و تناوبهما

فلو شاء أن يجعل النهار سرمدا من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه؟

و لو شاء أن يجعل الليل سرمدا من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تبصرون؟.

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)و لهذا قال هنا:–

(أَفَلَا تَعۡقِلُونَ)فتعرفون أن الذى وهب لكم من النعم السمع و الأبصار و الأفئدة

و الذى نشركم فى الأرض وحده و الذى يحيي و يميت وحده و الذى يتصرف بالليل و النهار وحده أن ذلك موجب لكم أن:–تخلصوا له العبادة وحده لا شريك له و تتركوا عبادة من لا ينفع و لا يضر و لا يتصرف بشيء بل هو عاجز من كل وجه فلو كان لكم عقل لم تفعلوا ذلك ﴿٨٠﴾

انكار المشركين للبعث و الرد عليهم 81-92

(بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ)

بل سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث و استبعدوه غاية الاستبعاد ﴿٨١﴾

و (قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ)أى: هذا لا يتصور و لا يدخل العقل بزعمهم﴿٨٢﴾

(لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ)أى:ما زلنا نوعد بأن البعث كائن نحن و آباؤنا و لم نره و لم يأت بعد

(إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ)

أى: قصصهم و أسمارهم التى يتحدث بها و تلهى و إلا فليس لها حقيقة و كذبوا – قبحهم الله–

فإن الله أراهم من آياته أكبر من البعث و مثله (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ)

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) الآيات

(وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) الآيات﴿٨٣﴾

(قُلۡ)لهؤلاء المكذبين بالبعث العادلين بالله غيره محتجا عليهم بما أثبتوه و أقروا به من توحيد الربوبية و انفراد الله بها على ما أنكروه من توحيد الإلهية و العبادة و بما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة على ما أنكروه من إعادة الموتى الذي هو أسهل من ذلك.

(لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ)أى:من هو الخالق للأرض و من عليها من حيوان و نبات و جماد و بحار و أنهار و جبال المالك لذلك المدبر له؟(إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)﴿٨٤﴾

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ)فإنك إذا سألتهم عن ذلك لا بد أن يقولوا:–الله وحده

فـــــ(قُلۡ)لهم إذا أقروا بذلك:–

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)أى:أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به مما هو معلوم عندكم مستقر فى فطركم قد يغيبه الإعراض فى بعض الأوقات.

و الحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم بمجرد التأمل علمتم أن مالك ذلك هو المعبود وحده و أن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل﴿٨٥﴾

*ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك فقال:–

(قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ)و ما فيها من النيرات و الكواكب السيارات و الثوابت

(وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ)الذى هو أعلى المخلوقات و أوسعها و أعظمها

فمن الذى خلق ذلك و دبره و صرفه بأنواع التدبير؟

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ)أى: سيقرون بأن الله رب ذلك كله (قُلْ) لهم حين يقرون بذلك:–

(أَفَلَا تَتَّقُونَ)عبادة المخلوقات العاجزة و تتقون الرب العظيم كامل القدرة عظيم السلطان؟﴿٨٦﴾

و فى هذا من لطف الخطاب من قوله:–(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(أَفَلَا تَتَّقُونَ)و الوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب ما لا يخفى﴿٨٧﴾

ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال:–

(قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ)صيغة مبالغة بمعنى الملك.

(كُلِّ شَيْءٍ)أى: ملك كل شيء من العالم العلوى و العالم السفلى ما نبصره و ما لا نبصره؟.

*بِيَدِهِ الْمُلْكُ {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} [هُود: 56] أَيْ: مُتَصَرِّفٌ فِيهَا.

و فى البخارى7294-وَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:- "لَا وَ الَّذِى نَفْسى بِيَدِهِ"

و فى البخارى6617-وَ كَانَ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الْيَمِينِ قَالَ:-لَا وَ مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ"

فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ

(وَهُوَ يُجِيرُ)عباده من الشر و يدفع عنهم المكاره و يحفظهم مما يضرهم

(وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ)أى: لا يقدر أحد أن يجير على الله.

و لا يدفع الشر الذى قدره الله. بل و لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه(إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)﴿٨٨﴾

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ)أى: سيقرون أن الله المالك لكل شيء المجير الذى لا يجار عليه.

(قُلْ)لهم حين يقرون بذلك ملزما لهم

(فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ)أى: فأين تذهب عقولكم حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم و لا قسط من الملك

و أنهم عاجزون من جميع الوجوه و تركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور فالعقول التى دلتكم على هذا لا تكون إلا مسحورة و هى-بلا شك-قد سحرها الشيطان بما زين لهم و حسن لهم و قلب الحقائق لهم فسحر عقولهم كما سحرت السحرة أعين الناس(٨٩)

بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

(بَلْ أَتَيْنَٰهُم)أى:–هؤلاء المكذبين

(بِٱلْحَقِّ)المتضمن للصدق فى الأخبار العدل فى الأمر و النهى فما بالهم لا يعترفون به و هو أحق أن يتبع؟

و ليس عندهم ما يعوضهم عنه إلا الكذب و الظلم و لهذا قال:–(وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ)﴿٩٠﴾

(مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ)كذب يعرف بخبر الله و خبر رسله و يعرف بالعقل الصحيح

و لهذا نبه تعالى على الدليل العقلي على امتناع إلهين فقال:–

(إِذًا)أى:لو كان معه آلهة كما يقولون(لَّذَهَبَ)لانفرد (كُلُّ إِلَٰهٍۭ)من الإلهين

(بِمَا خَلَقَ)من مخلوقاته و استقل بها و لحرص على ممانعة الآخر و مغالبته

(وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ)

فالغالب يكون هو الإله و إلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم و لا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول و اعتبر ذلك بالشمس و القمر و الكواكب الثابتة و السيارة فإنها منذ خلقت و هى تجرى على نظام واحد و ترتيب واحد كلها مسخرة بالقدرة مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد و لن ترى فيها خللا و لا تناقضا و لا معارضة فى أدنى تصرف

فهل يتصور أن يكون ذلك تقدير إلهين ربين؟(٩١)

(سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)قد نطقت بلسان حالها و أفهمت ببديع أشكالها أن المدبر لها إله واحد كامل الأسماء و الصفات قد افتقرت إليه جميع المخلوقات فى ربوبيته لها و في إلهيته لها

فكما لا وجود لها و لا دوام إلا بربوبيته كذلك لا صلاح لها و لا قوام إلا بعبادته و إفراده بالطاعة

و لهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك و هو علمه المحيط فقال:-

(عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ)أى:الذى غاب عن أبصارنا و علمنا من:-الواجبات و المستحيلات و الممكنات

(وَٱلشَّهَٰدَةِ)و هو ما نشاهد من ذلك(فَتَعَٰلَىٰ)ارتفع و عظم

(عَمَّا يُشۡرِكُونَ)به من لا علم عنده إلا ما علمه الله(٩٢)

*لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة فلم يلتفتوا لها و لم يذعنوا لها حق عليهم العذاب و وعدوا بنزوله و أرشد الله رسوله أن يقول:

توجيهات إلهية للنبى ﷺ 93-98

(قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ)أى:أى وقت أريتنى عذابهم و أحضرتنى ذلك

*إِنْ عَاقَبْتَهُمْ-وَ إِنِّ شاهدُ ذَلِكَ-فَلَا تَجْعَلْنِي فِيهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ:-

*الترمذى 3235-قال النبي ﷺ(وَ إِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِى غَيْرَ مَفْتُونٍ)(٩٣)

(رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)اعصمنى و ارحمنى مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم

و احمني أيضا من العذاب الذي ينزل بهم لأن العقوبة العامة تعم – عند نزولها– العاصى و غيره (٩٤)

قال الله فى تقريب عذابهم:-

(وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ)و لكن إن أخرناه فلحكمة و إلا فقدرتنا صالحة لإيقاعه فيهم(٩٥)

هذا من مكارم الأخلاق التى أمر الله رسوله بها فقال:-

(ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ)

أى: إذا أساء إليك أعداؤك بالقول و الفعل فلا تقابلهم بالإساءة مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته

و لكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم فإن ذلك فضل منك على المسيء

و من مصالح ذلك:-

أنه تخف الإساءة عنك في الحال و فى المستقبل و أنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق

و أقرب إلى ندمه و أسفه و رجوعه بالتوبة عما فعل و ليتصف العافي بصفة الإحسان

و يقهر بذلك عدوه الشيطان و ليستوجب الثواب من الرب قال تعالى:-(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

و قال تعالى:-(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ34)

(وَمَا يُلَقَّاهَا)أي:– ما يوفق لهذا الخلق الجميل إلا (الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)[فصلت]

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)

أى:–بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر و التكذيب بالحق قد أحاط علمنا بذلك و قد حلمنا عنهم

و أمهلناهم و صبرنا عليهم و الحق لنا و تكذيبهم لنا

فأنت –يا محمد–ينبغى لك أن تصبر على ما يقولون و تقابلهم بالإحسان هذه وظيفة العبد في مقابلة المسىء

من البشر

و أما المسىء من الشياطين فإنه لا يفيد فيه الإحسان و لا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير

فالوظيفة فى مقابلته أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله فقال:–

(وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ)اعتصم(بِكَ)بحولك و قوتك متبرئا من حولى و قوتى

(مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ)أَمَرَهُ أَنْ يَسْتَعِيذَ مِنَ الشَّيَاطِينِ لِأَنَّهُمْ لَا تَنْفَعُ مَعَهُمُ الْحِيَلُ وَ لَا يَنْقَادُونَ بِالْمَعْرُوفِ.

وَ قَدْ قَدَّمْنَا عِنْدَ الِاسْتِعَاذَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ:

"أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِه و نَفْخه و نَفْثه"

*أي أعوذ بك من الشر الذى يصيبنى بسبب مباشرتهم و همزهم و مسهم و من الشر الذى بسبب حضورهم

و وسوستهم و هذه استعاذة من مادة الشر كله و أصله

و يدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان و من مسه و وسوسته فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر

و أجاب دعاءه سلم من كل شر و وفق لكل خير

(وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ)فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِي

وَ لِهَذَا أَمَرَ بِذِكْرِ اللَّهِ فِي ابْتِدَاءِ الْأُمُورِ–وَ ذَلِكَ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيَاطِينِ-عِنْدَ الْأَكْلِ وَ الْجِمَاعِ وَ الذَّبْحِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ وَ لِهَذَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺ كَانَ يَقُولُ:-

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَرَم وَ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَدْم وَ مِنَ الْغَرَقِ وَ أَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ"

*أحمد 6696 - عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ:

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺيُعَلِّمُنَا كَلِمَاتٍ نَقُولُهُنَّ عِنْدَ النَّوْمِ مِنَ الْفَزَعِ:-

بِسْمِ اللهِ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَ عِقَابِهِ وَ شَرِّ عِبَادِهِ وَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَ أَنْ يَحْضُرُونِ

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)

يخبر تعالى عن حال من حضره الموت من المفرطين الظالمين أنه يندم في تلك الحال إذا رأى مآله

و شاهد قبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا لا للتمتع بلذاتها و اقتطاف شهواتها(99)و إنما ذلك يقول:–

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)من العمل و فرطت فى جنب الله

النَّدم عند الموت و مشاهد يوم القيامة 99-115

(كَلَّآۚ)حَرْفُ رَدْعٍ وَ زَجْرٍ أَيْ:- لَا نُجِيبُهُ إلى ما طلب و لا نقبل منه.

*أى:–لا رجعة له و لا إمهال قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون

*قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ:-أَيْ لَا بُدَّ أَنْ يَقُولَهَا لَا مَحَالَةَ كُلُّ مُحْتَضِرٍ ظَالِمٍ.
وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عِلَّةً لِقَوْلِهِ:-"كَلَّا" أَيْ:-لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ أَيْ: سُؤَالُهُ الرُّجُوعَ لِيَعْمَلَ صَالِحًا هُوَ كَلَامٌ مِنْهُ وَ قَوْلٌ لَا عَمَلَ مَعَهُ وَ لَوْ رُدَّ لَمَا عَمِلَ صَالِحًا وَ لَكَانَ يَكْذِبُ فِي مَقَالَتِهِ هَذِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}[الانعام:28]

*كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ10 وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[الْمُنَافِقُونَ]

وَ قَالَ تَعَالَى: {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} [إبْرَاهِيمَ:44] وَ قَالَ {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}[الْأَعْرَافِ: 53] وَ قَالَ{وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}[السجدة 12] وَ قَالَ{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ27 بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}[الْأَنْعَامِ] وَ قَالَ {وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ} [الشُّورَى:44]

وَ قَالَ تَعَالَى:{قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ11 ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}[غَافِرٍ] وَ قَالَ{وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}[فَاطِرٍ: 37]

*فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ فَلَا يُجَابُونَ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ وَ يَوْمَ النُّشُورِ وَ وَقْتَ الْعَرْضِ عَلَى الْجَبَّارِ وَ حِينَ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ وَ هُمْ فِي غَمَرَاتِ عَذَابِ الْجَحِيمِ.

(إِنَّهَا)أى: مقالته التى تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا

(كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا)أى:–مجرد قول باللسان لا يفيد صاحبه إلا الحسرة و الندم و هو أيضا غير صادق فى ذلك فإنه لو رد لعاد لما نهى عنه.

(وَمِن وَرَآئِهِم)أى: من أمامهم و بين أيديهم

(بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ)و هو الحاجز بين الشيئين فهو هنـا:–الحاجز بين الدنيا و الآخرة
و فى هذا البرزخ يتنعم المطيعون و يعذب العاصون من موتهم إلى يوم يبعثون أي: فليعدوا له عدته و ليأخذوا له أهبته.

*كَمَا قَالَ:-(مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ)[الْجَاثِيَةُ: 10] وَ قَالَ(وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ) [إبْرَاهِيمَ: 17] ﴿١٠٠﴾

(فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ)يخبر تعالى عن هول يوم القيامة و ما فى ذلك اليوم من المزعجات و المقلقات

و أنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث فحشر الناس أجمعون لميقات يوم معلوم أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم التى هى أقوى الأسباب فغير الأنساب من باب أولى (فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ)

(وَلَا يَتَسَآءَلُونَ)و أنه لا يسأل أحد أحدا عن حاله لاشتغاله بنفسه فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟قال تعالى:-

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ *وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ*لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

و في القيامة مواضع يشتد كربها و يعظم وقعها كالميزان الذي يميز به أعمال العبد و ينظر فيه بالعدل ما له و ما عليه و تبين فيه مثاقيل الذر من الخير و الشر

*لَا تَنْفَعُ الْأَنْسَابُ يَوْمَئِذٍ وَ لَا يَرْثِي وَالِدٌ لِوَلَدِهِ وَ لَا يَلْوِى عَلَيْهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:-

{وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا10 يُبَصَّرُونَهُمْ} [الْمَعَارِجِ]أَيْ:لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ وَ هُوَ يُبْصِرُهُ وَ لَوْ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْزَارِ مَا قَدْ أَثْقَلَ ظَهْرَهُ وَ هُوَ كَانَ أَعَزَّ النَّاسِ عَلَيْهِ -كَانَ-فِي الدُّنْيَا مَا الْتَفَتَ إِلَيْهِ وَ لَا حَمَلَ عَنْهُ وَزْنَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:-{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ34 وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ35 وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ36 لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عَبَسَ] ﴿١٠١﴾

(فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ)بأن رجحت حسناته على سيئاته

(فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ)لنجاتهم من النار و استحقاقهم الجنة و فوزهم بالثناء الجميل ﴿١٠٢﴾

(وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ)بأن رجحت سيئاته على حسناته و أحاطت بها خطيئاته

(فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ)كل خسارة غير هذه الخسارة فإنها – بالنسبة إليها– سهلة و لكن هذه خسارة صعبة لا يجبر مصابها و لا يستدرك فائتها خسارة أبدية و شقاوة سرمدية قد خسر نفسه الشريفة التى يتمكن بها من السعادة الأبدية ففوتها هذا النعيم المقيم في جوار الرب الكريم.

(فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ)لا يخرجون منها أبد الآبدين و هذا الوعيد إنما هو كما ذكرنا لمن أحاطت خطيئاته بحسناته و لا يكون ذلك إلا كافرا فعلى هذا لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته و سيئاته فإنهم لا حسنات لهم و لكن تعد أعمالهم و تحصى فيوقفون عليها و يقررون بها و يخزون بها

و أما من معه أصل الإيمان و لكن عظمت سيئاته فرجحت على حسناته فإنه و إن دخل النار لا يخلد فيها كما دلت على ذلك نصوص الكتاب و السنة﴿١٠٣﴾ ثم ذكر تعالى سوء مصير الكافرين فقال:–

(تَلۡفَحُ)تحرق(وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ)تغشاهم من جميع جوانبهم حتى تصيب أعضاءهم الشريفة و يتقطع لهبها عن وجوههم كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} [إِبْرَاهِيمَ: 50]

وَ قَالَ {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} [الْأَنْبِيَاءِ: 39]

(وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ)قد عبست وجوههم و قلصت شفاههم من شدة ما هم فيه و عظيم ما يلقونه

المخلصيات893- حدثنا أحمدُ: حدثنا عليٌّ: حدثنا أبومسهرٍ: حدثنا سعيدٌ قالَ:-

مرَّ أبوأُسيدٍ الفزاريُّ بسوقِ الرؤوسِ فذكَرَ هذه الآيةَ: {وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ}[المؤمنون: 104] فخرَّ مَغشياً عليه﴿١٠٤﴾

أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

فيقال لهم–توبيخا و لوما–:(أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ)تدعون بها لتؤمنوا و تعرض عليكم لتنظروا (فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ)ظلما منكم و عنادا و هى آيات بينات دالات على الحق و الباطل مبينات للمحق و المبطل فحينئذ أقروا بظلمهم حيث لا ينفع الإقرار

*كَمَا قَالَ:{لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}[النِّسَاءِ: 165] وَ قَالَ:{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا}[الْإِسْرَاءِ: 15] وَ قَالَ{كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ8 قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نزلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ9وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ10 فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأصْحَابِ السَّعِيرِ}[الْمُلْكِ]

﴿١٠٥﴾

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ المؤمنون: ١٠٥

كم أثر فيَّ قوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [(١)]، لقد صارت أمام عيني كلما هممت بمعصية، أتخيل أن الله – سبحانه – يخاطبني بها فأرتدع، فها هو القرآن بين أظهرنا يتلى آناء الليل والنهار، نورًا يمحو ظلمات الهوى، لا يترك لأحد على الله حجة، فلنستمع لآياته، ونتعظ بها قبل أن يقال لنا ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾

(قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا)

أى:غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم و الإعراض عن الحق و الإقبال على ما يضر و ترك ما ينفع

(وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ)فى عملهم و إن كانوا يدرون أنهم ظالمون أى: فعلنا في الدنيا فعل التائه الضال السفيه كما قالوا في الآية الأخرى:(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)﴿١٠٦﴾

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)و هم كاذبون فى وعدهم هذا فإنهم كما قال تعالى:

{وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام: 28]

و لم يبق الله لهم حجة بل قطع أعذارهم و عَمَّرهم فى الدنيا ما يتذكر فيه من المتذكرو يرتدع فيه المجرم﴿١٠٧﴾

فـــــ(قَالَ) الله جوابا لسؤالهم:-(اخْسَئُوا)امكثوا (فِيهَا)صاغرين مهانين اذلاء

(وَلَا تُكَلِّمُونِ)لَا تَعُودُوا إِلَى سُؤَالِكُمْ هَذَا فَإِنَّهُ لا جواب لكم عندى

*و هذا القول–نسأله تعالى العافية–أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب و التوبيخ و الذل و الخسار و التأييس من كل خير و البشرى بكل شر و هذا الكلام والغضب من الرب الرحيم أشد عليهم أبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم

*صحيح الترغيب:3691-عن عبدِ اللهِ بنِ عَمروﷺ قال :-

إنَّ أهلَ النارِ يَدعون مالكًا فلا يجيبُهم أربعينَ عامًا ثم يقولُ (إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ) ثم يَدعون ربَّهم فيقولون (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)فلا يجيبُهم مثلُ الدنيا ثم يقول (اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ)

ثم قياسُ القومِ فما هو إلا الزفيرُ و الشهيقُ تشبه أصواتُهم أصواتَ الحميرِ أولُها شهيقٌ و آخرُها زفيرٌ﴿١٠٨﴾

*ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب و قطعت عنهم الرحمة فقال:–

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

فجمعـــــوا بيـــــن:–

1–الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة 2–و الدعاء لربهم بالمغفرة و الرحمة

3–و التوسل إليه بربوبيته 4–و منته عليهم بالإيمان 5–و الإخبار بسعة رحمته و عموم إحسانه

و فى ضمنه:–

ما يدل على خضوعهم و خشوعهم و انكسارهم لربهم و خوفهم و رجائهم فهؤلاء سادات الناس و فضلائهم ﴿١٠٩﴾

(فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ)أيها الكفرة الأنذال ناقصو العقول و الأحلام

(سِخْرِيًّا)تهزءون بهم و تحتقرونهم حتى اشتغلتم بذلك السفه

(حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي)حَمَلَكُمْ بُغْضُهُمْ عَلَى أَنْ نَسِيتم مُعَامَلَتِى

(وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ)مِنْ صَنِيعِهِمْ وَ عِبَادَتِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-

{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ29 وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ} [المُطَفِّفِينَ] أَيْ: يَلْمِزُونَهُمُ اسْتِهْزَاءً.

*و هذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر اشتغالهم بالاستهزاء بهم كما أن نسيانهم للذكر يحثهم على الاستهزاء فكل من الأمرين يمد الآخر فهل فوق هذه الجراءة جراءة؟! ﴿١١٠﴾

(إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ)على طاعتي و على أذاكم حتى وصلوا إلي.

(أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ)بالنعيم المقيم و النجاة من الجحيم

كما قال في الآية الأخرى:(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)الآيات﴿١١١﴾

(قَٰلَ)لهم على وجه اللوم و أنهم سفهاء الأحلام حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلهم إلى غضبه و عقوبته و لم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون من الخير الذى يوصلهم إلى السعادة الدائمة و رضوان ربهم.

(كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ)

كلامهم هذا مبني على استقصارهم جدا لمدة مكثهم في الدنيا و أفاد ذلك لكنه لا يفيد مقداره و لا يعينه

فلهذا قالوا (فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ)الضابطين لعدده و أما هم ففي شغل شاغل و عذاب مذهل عن معرفة عدده ﴿١١٣﴾

فـــــ(قَٰلَ)لهم (إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ)سواء عينتم عدده أم لا(لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)﴿١١٤﴾

(أَفَحَسِبۡتُمۡ)أيها الخلق

(أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا)سدى و باطلا تأكلون و تشربون و تمرحون و تتمتعون بلذات الدنيا و نترككم لا نأمركم و لا ننهاكم و لا نثيبكم و لا نعاقبكم؟

و لهذا قال:-(وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ)لا يخطر هذا ببالكم أَيْ: لَا تَعُودُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ:-

{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} [القِيَامَةِ: 36] يَعْنِي هَمَلًا﴿١١٥﴾

ما هذا العبث ؟

عن يُونسَ البَلْخيِّ قال: كان إبراهيمُ بن أدهمَ من الأشرافِ، وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب والجنائب والبزاة، فبينا إبراهيمُ في الصيد على فرسه يُركِّضُه إذا هو بصوت من فوقه: يا إبراهيم ما هذا العبث؟ ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ المؤمنون: ١١٥ [٢] اتق الله، عليك بالزاد ليوم الفاقة. فنزل عن دابته وأخذ في عمل الآخرة سير آعلام النبلاء

(فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ)تعاظم و انتفع عن هذا الظن الباطل الذى يرجع إلى القدح في حكمته

الدعاء 116-118

(ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ)فكونه ملكا للخلق كلهم حقا في صدقه و وعده و وعيده

(لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ)مألوها معبودا لما له من الكمال

(رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ)فما دونه من باب أولى يمنع أن يخلقكم عبثا﴿١١٦﴾

(وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ)

و من دعا مع الله آلهة غيره بلا بينة من أمره و لا برهان يدل على ما ذهب إليه و هذا قيد ملازم فكل من دعا غير الله فليس له برهان على ذلك بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه فأعرض عنها ظلما و عنادا فهذا سيقدم على ربه فيجازيه بأعماله و لا ينيله من الفلاح شيئا لأنه كافر

(إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ)فكفرهم منعهم من الفلاح﴿١١٧﴾

(وَقُل)داعيا لربك مخلصا له الدين

(رَّبِّ ٱغۡفِرۡ)لنا حتى تنجينا من المكروه فالغَفْرُ -إِذَا أطلِق-مَعْنَاهُ مَحْوُ الذَّنْبِ وَ سَتْرُهُ عَنِ النَّاسِ

(وَٱرۡحَمۡ)ـنا لتوصلنا برحمتك إلى كل خير

*وَ الرَّحْمَةُ مَعْنَاهَا:-أَنْ يُسَدِّدَهُ وَ يُوَفِّقَهُ فِي الْأَقْوَالِ وَ الْأَفْعَالِ.

(وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ)فكل راحم للعبد فالله خير له منه أرحم بعبده من الوالدة بولدها و أرحم به من نفسه﴿١١٨﴾

24-سورة النور-مدنية-بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

الحدود الشرعية 1-26

هذه (سُورَةٌ)عظيمة القدر(أَنزَلْنَٰهَا)رحمة منا بالعباد و حفظناها من كل شيطان

(وَفَرَضْنَٰهَا)أى:قدرنا فيها ما قدرنا من الحدود و الشهادات و غيرها

(وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ)أى:-أحكاما جليلة و أوامر و زواجر و حكما عظيمة

(لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)حين نبين لكم و نعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴿١﴾

ثم شرع فى بيان تلك الأحكام المشار إليها فقال:-

(ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ)

هذا الحكم فى الزانى و الزانية البكرين أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة

و أما الثيب فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة أن حده الرجم

و نهانا تعالى أن تأخذنا رأفة بهما فى دين الله تمنعنا من إقامة الحد عليهم سواء رأفة طبيعية أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك فقال:-

(وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ)حُكْمِ(ٱللَّهِ)لَا تَرْجُمُوهُمَا وَ تَرْأَفُوا بِهِمَا فِي شَرْعِ اللَّهِ

وَ لَيْسَ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ الرَّأْفَةَ الطَّبِيعِيَّةَ أَلَّا تَكُونَ حَاصِلَةً عَلَى تَرْكِ الْحَدِّ وَ إِنَّمَا هِيَ الرَّأْفَةُ الَّتِى تَحمِلُ الْحَاكِمَ عَلَى تَرْكِ الْحَدِّ فَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ.

*وَ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ:-

أَنَّ جَارِيَةً لِابْنِ عُمَرَ زَنَتْ فَضَرَبَ رِجْلَيْهَا–قَالَ نَافِعٌ: أَرَاهُ قَالَ: وَ ظَهْرَهَا -قَالَ: قُلْتُ:
(وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ) قَالَ: يَا بُنَيَّ و رأيتنى أَخَذَتْنِى بِهَا رَأْفَةٌ؟
إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْنِي أَنْ أَقْتُلَهَا وَ لَا أَنْ أَجْعَلَ جلدها فِي رَأْسِهَا وَ قَدْ أُوجِعَتْ حَيْثُ ضُرِبَتْ
(إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)فَافْعَلُوا ذَلِكَ:-
أَقِيمُوا الْحُدُودَ عَلَى مَنْ زَنَى وَ شَدِّدُوا عَلَيْهِ الضَّرْبَ وَ لَكِنْ لَيْسَ مبرِّحا لِيَرْتَدِعَ هُوَ وَ مَنْ يَصْنَعُ مِثْلَهُ بِذَلِكَ.
فالإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله فرحمته حقيقة بإقامة حد الله عليه فنحن
و إن رحمناه لجريان القدر عليه فلا نرحمه من هذا الجانب و أمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين طائفة فقال:–
(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ)جماعة(مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)
*هَذَا فِيهِ تَنْكِيلٌ لِلزَّانِيَيْنِ إِذَا جُلِدا بِحَضْرَةِ النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ أَبْلَغَ فِي زَجْرِهِمَا وَ أَنْجَعَ فِي رَدْعِهِمَا
فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَ تَوْبِيخًا وَ فَضِيحَةً إِذَا كَانَ النَّاسُ حُضُورًا
*ليشتهر و يحصل بذلك الخزى و الارتداع و ليشاهدوا الحد فعلا فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل مما يقوى
بها العلم و يستقر به الفهم و يكون أقرب لإصابة الصواب فلا يزاد فيه و لا ينقص
*هذا بيان لرذيلة الزنا و أنه يدنس عرض صاحبه و عرض من قارنه و مازجه ما لا يفعله بقية الذنوب
فأخبر أن الزانى لا يقدم على نكاحه من النساء إلا أنثى زانية تناسب حاله حالها أو مشركة بالله لا تؤمن ببعث
و لا جزاء و لا تلتزم أمر الله و الزانية كذلك لا ينكحها إلا زان أو مشرك
*فَإِنَّ الزَّانِيَ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِكْرًا وَ هُوَ الَّذِى لَمْ يَتَزَوَّجْ أَوْ مُحْصَنًا وَ هُوَ الَّذِى قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ
وَ هُوَ حُرٌّ بَالِغٌ عَاقِلٌ.
فَأَمَّا إِذَا كَانَ بِكْرًا لَمْ يَتَزَوَّجْ فَإِنَّ حدَّه مِائَةُ جَلْدَةٍ كَمَا فِي الْآيَةِ وَيُزَادُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُغرب عَامًا عَنْ بَلَدِهِ عِنْدَ
جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فَإِنَّ عِنْدَهُ أَنَّ التغريب إِلَى رَأْيِ الْإِمَامِ إِنْ شَاءَ غَرَّبَ وَ إِنْ شَاءَ لَمْ
يغرِّب.
*البخارى6827 عن عُبَيْدِ اللهِ: أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ وَ زَيْدَ بْنَ خَالِدٍ قَالاَ:-كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ:-
أَنْشُدُكَ اللَّهَ إِلَّا قَضَيْتَ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ فَقَامَ خَصْمُهُ وَ كَانَ أَفْقَهَ مِنْهُ فَقَالَ:-اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَ أْذَنْ لِي؟
قَالَ: «قُلْ»قَالَ: إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَ خَادِمٍ
ثُمَّ سَأَلْتُ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فَأَخْبَرُونِي: أَنَّ عَلَى ابْنِي جَلْدَ مِائَةٍ وَ تَغْرِيبَ عَامٍ وَ عَلَى امْرَأَتِهِ الرَّجْمَ.
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-«وَ الَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ المِائَةُ شَاةٍ وَ الخَادِمُ رَدٌّ عَلَيْكَ
وَ عَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَ تَغْرِيبُ عَامٍ وَ اغْدُ يَا أُنَيْسُ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا»
فَغَدَا عَلَيْهَا فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا قُلْتُ لِسُفْيَانَ:-لَمْ يَقُلْ: فَأَخْبَرُونِى أَنَّ عَلَى ابْنِى الرَّجْمَ؟
فَقَالَ:-«الشَّكُّ فِيهَا مِنَ الزُّهْرِيِّ فَرُبَّمَا قُلْتُهَا وَ رُبَّمَا سَكَتُّ»
*فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى:-
1-تَغْرِيبِ الزَّانِي مَعَ جِلْدِ مِائَةٍ إِذَا كَانَ بِكْرًا لَمْ يَتَزَوَّجْ
2-فَأَمَّا إِنْ كَانَ مُحْصَنًا فَإِنَّهُ يُرْجَمُ
*البخارى6830-فَجَلَسَ عُمَرُ عَلَى المِنْبَرِ فَلَمَّا سَكَتَ المُؤَذِّنُونَ قَامَ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ

ثُمَّ قَالَ:أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّى قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا لاَ أَدْرِى لَعَلَّهَا بَيْنَ يَدَىْ أَجَلِى

فَمَنْ عَقَلَهَا وَ وَعَاهَا فَلْيُحَدِّثْ بِهَا حَيْثُ انْتَهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ

وَ مَنْ خَشِىَ أَنْ لاَ يَعْقِلَهَا فَلاَ أُحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ عَلَىَّ:-

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺبِالحَقِّ وَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةُ الرَّجْمِ فَقَرَأْنَاهَا وَ عَقَلْنَاهَا

وَ وَعَيْنَاهَا رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَ رَجَمْنَا بَعْدَهُ فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ:-

وَ اللَّهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ

وَ الرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ البَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الحَبَلُ أَوِ الاِعْتِرَافُ

*و رجم رسول الله ﷺ ماعزا و الغامدية

*مسلم(1694)عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَسْلَمَ يُقَالُ لَهُ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺفَقَالَ:-

إِنِّي أَصَبْتُ فَاحِشَةً(أراد بالفاحشة هنا الزنى)فَأَقِمْهُ عَلَيَّ(فأقم حده على)فَرَدَّهُ النَّبِيُّ ﷺ مِرَارًا قَالَ: ثُمَّ سَأَلَ قَوْمَهُ فَقَالُوا:-

مَا نَعْلَمُ بِهِ بَأْسًا إِلَّا أَنَّهُ أَصَابَ شَيْئًا يَرَى أَنَّهُ لَا يُخْرِجُهُ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يُقَامَ فِيهِ الْحَدُّ قَالَ:-فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ

فَأَمَرَنَا أَنْ نَرْجُمَهُ قَالَ: فَانْطَلَقْنَا بِهِ إِلَى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ(موضع بالمدينة و هو مقبرتها)قَالَ:-فَمَا أَوْثَقْنَاهُ وَ لَا حَفَرْنَا لَهُ

قَالَ: فَرَمَيْنَاهُ بِالْعَظْمِ وَ الْمَدَرِ وَ الْخَزَفِ(العظم معروف والمدر الطين المتماسك والخزف قطع الفخار المنكسر)قَالَ:-

فَاشْتَدَّ وَ اشْتَدَدْنَا خَلْفَهُ(أي عدا وأسرع للفرار وعدونا خلفه)حَتَّى أَتَى عُرْضَ الْحَرَّةِ(جانبها و الحرة بقعة بالمدينة ذات حجارة سود)

فَانْتَصَبَ لَنَا فَرَمَيْنَاهُ بِجَلَامِيدِ الْحَرَّةِ-يَعْنِي الْحِجَارَةَ-(أي بصخورها و هى الحجارة الكبار واحدها جلمود وجلمد)حَتَّى سَكَتَ قَالَ:-

ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا مِنَ الْعَشِيِّ فَقَالَ:-

«أَوَ كُلَّمَا انْطَلَقْنَا غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ تَخَلَّفَ رَجُلٌ فِي عِيَالِنَا لَهُ نَبِيبٌ كَنَبِيبِ التَّيْسِ عَلَيَّ أَنْ لَا أُوتَى

(أن مخففة واسمها ضمير الشأن أي ليكن لازما على هذا الشأن وهو لا أوتى برجل فعل الفجور بإحدى عيال الغزاة إلا فعلت به من العقوبة ما يكون عبرة لغيره)

بِرَجُلٍ فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا نَكَّلْتُ بِهِ»قَالَ:-فَمَا اسْتَغْفَرَ لَهُ وَ لَا سَبَّهُ

(أما عدم السب فلأن الحد كفارة له مطهرة له من معصيته وأما عدم الاستغفار فلئلا يغتر غيره فيقع في الزنى اتكالا على استغفارهﷺ)

*وَ كُلُّ هَؤُلَاءِ لَمْ يُنقل عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ جَلدهم قَبْلَ الرَّجْمِ.

وَ إِنَّمَا وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاح الْمُتَعَدِّدَةُ الطُّرُقِ وَ الْأَلْفَاظِ بِالِاقْتِصَارِ عَلَى رَجْمِهِمْ وَ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْجَلْدِ

وَ لِهَذَا كَانَ هَذَا مَذْهَبَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ وَ إِلَيْهِ ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَ مَالِكٌ وَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وَ ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُجْمَعَ عَلَى الزَّانِي المحصن بَيْنَ الْجَلْدِ لِلْآيَةِ وَ الرَّجْمِ لِلسُّنَّةِ

كَمَا رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ﵁أَنَّهُ لَمَّا أُتِيَ بِشُرَاحة وَ كَانَتْ قَدْ زَنَتْ وَ هِيَ مُحْصَنَةٌ

فَجَلَدَهَا يَوْمَ الْخَمِيسِ وَ رَجَمَهَا يَوْمَ الْجُمْعَةِ ثُمَّ قَالَ:-جلدتها بِكِتَابِ اللَّهِ وَ رَجَمْتُهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

*مسلم(1690)عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ﵁ قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

«خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَ نَفْيُ سَنَةٍ وَ الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَ الرَّجْمُ»﴿٢﴾

(ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً)هَذَا خَبَر مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّ الزَّانِيَ لَا يَطأ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً.

أَيْ:لَا يُطَاوِعُهُ عَلَى مُرَادِهِ مِنَ الزِّنَى إِلَّا زَانِيَةٌ عَاصِيَةٌ أَوْ مُشْرِكَةٌ لَا تَرى حُرْمَةَ ذَلِكَ وَ كَذَلِكَ:-

(وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ)أَيْ:-عَاصٍ بِزِنَاهُ(أَوۡ مُشۡرِكٌ)لَا يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ.

(وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ)تَعَاطِيهِ وَ التَّزْوِيجُ بِالْبَغَايَا أَوْ تَزْوِيجُ الْعَفَائِفِ بِالْفُجَّارِ مِنَ الرِّجَالِ.

أى: حرم عليهم أن ينكحوا زانيا أو ينكحوا زانية.

و معنى الآية:–

أن من اتصف بالزنا من رجل أو امرأة و لم يتب من ذلك أن المقدم على نكاحه مع تحريم الله لذلك لا يخلو إما أن لا يكون ملتزما لحكم الله و رسوله فذاك لا يكون إلا مشركا

*و إما أن يكون ملتزما لحكم الله و رسوله فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه فإن هذا النكاح زنا و الناكح زان مسافح فلو كان مؤمنا بالله حقا لم يقدم على ذلك و هذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب و كذلك إنكاح الزانى حتى يتوب فإن مقارنة الزوج لزوجته و الزوجة لزوجها أشد الاقترانات و الازدواجات و قد قال تعالى:-(احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ)أى:قرناءهم فحرم الله ذلك لما فيه من الشر العظيم و فيه من قلة الغيرة و إلحاق الأولاد الذين ليسوا من الزوج و كون الزانى لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها مما بعضه كاف للتحريم و فى هذا دليل أن الزانى ليس مؤمنا كما قال النبى ﷺ:–

«لا يزنى الزانى حين يزنى و هو مؤمن»

فهو و إن لم يكن مشركا فلا يطلق عليه اسم المدح الذى هو الإيمان المطلق.

*الترمذى 3177 - عن عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ:-
كَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ وَ كَانَ رَجُلًا يَحْمِلُ الأَسْرَى مِنْ مَكَّةَ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِمُ المَدِينَةَ
قَالَ: وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهَا: عَنَاقٌ وَ كَانَتْ صَدِيقَةً لَهُ وَ إِنَّهُ كَانَ وَعَدَ رَجُلًا مِنْ أُسَارَى مَكَّةَ يَحْمِلُهُ
قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى ظِلِّ حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ قَالَ:-
فَجَاءَتْ عَنَاقٌ فَأَبْصَرَتْ سَوَادَ ظِلِّي بِجَنْبِ الحَائِطِ فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَيَّ عَرَفَتْ فَقَالَتْ: مَرْثَدٌ؟فَقُلْتُ: مَرْثَدٌ.
فَقَالَتْ: مَرْحَبًا وَ أَهْلًا هَلُمَّ فَبِتْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ. قَالَ: قُلْتُ: يَا عَنَاقُ حَرَّمَ اللهُ الزِّنَا
قَالَتْ: يَا أَهْلَ الخِيَامِ هَذَا الرَّجُلُ يَحْمِلُ أُسَرَاءَكُمْ قَالَ: فَتَبِعَنِي ثَمَانِيَةٌ وَ سَلَكْتُ الخَنْدَمَةَ فَانْتَهَيْتُ إِلَى كَهْفٍ أَوْ غَارٍ فَدَخَلْتُ فَجَاءُوا حَتَّى قَامُوا عَلَى رَأْسِي فَبَالُوا فَظَلَّ بَوْلُهُمْ عَلَى رَأْسِي وَ عَمَّاهُمُ اللَّهُ عَنِّي
قَالَ: ثُمَّ رَجَعُوا وَ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَحَمَلْتُهُ وَ كَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الإِذْخِرِ
فَفَكَكْتُ عَنْهُ أَكْبُلَهُ فَجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ وَ يُعْيِينِي حَتَّى قَدِمْتُ المَدِينَةَ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ:-
يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْكِحُ عَنَاقًا؟فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَتْ
(الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ)فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-
«يَا مَرْثَدُ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ فَلَا تَنْكِحْهَا»
*أبي داود2052 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-«لَا يَنْكِحُ الزَّانِي المَجْلُودُ إِلَّا مِثْلَهُ»
*قَالُوا: فَأَمَّا إِذَا حَصَلَتْ تَوْبَةٌ فَإِنَّهُ يَحِلُّ التَّزْوِيجُ(٣)

حكم القذف 4-5

*لما عظم تعالى أمر الزانى بوجوب جلده و كذا رجمه إن كان محصنا و أنه لا تجوز مقارنته و لا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من الشر بين تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمى بالزنا فقال:-

(وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ)النساء الأحرار العفائف و كذاك الرجال لا فرق بين الأمرين

و المراد بالرمى الرمى بالزنا بدليل السياق

(ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ)على ما رموا به(بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ)أى:-رجال عدول يشهدون بذلك صريحا

(فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً)بسوط متوسط يؤلم فيه و لا يبالغ بذلك حتى يتلفه لأن القصد التأديب لا الإتلاف

و في هذا تقدير حد القذف و لكن بشرط أن يكون المقذوف كما قال تعالى محصنا مؤمنا

و أما قذف غير المحصن فإنه يوجب التعزير.

(وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا)

أى:لهم عقوبة أخرى و هو أن شهادة القاذف غير مقبولة و لو حد على القذف حتى يتوب كما يأتى

(وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ)الخارجون عن طاعة الله الذين قد كثر شرهم و ذلك:-

1-لانتهاك ما حرم الله و انتهاك عرض أخيه

2-و تسليط الناس على الكلام بما تكلم به

3-و إزالة الأخوة التى عقدها الله بين أهل الإيمان

4-و محبة أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا و هذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب

فَأَوجَبَ عَلَى الْقَاذِفِ إِذَا لَمْ يُقِمْ بَيِّنَةً على صِحَّةِ مَا قَالَهُ ثَلَاثَةَ أَحْكَامٍ:-

أَحَدُهَا:-أَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ جَلْدَةً.

الثَّانِى:-أَنَّهُ تُرَدُّ شَهَادَتُهُ دَائِمًا.

الثَّالِثُ:-أَنْ يَكُونَ فَاسِقًا لَيْسَ بِعَدْلٍ لَا عِنْدَ اللَّهِ وَ لَا عِنْدَ النَّاسِ﴿٤﴾

(إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ)فالتوبة فى هذا الموضع أن يكذب القاذف نفسه و يقر أنه كاذب فيما قال

و هو واجب عليه أن يكذب نفسه و لو تيقن وقوعه حيث لم يأت بأربعة شهداء

*فإذا تاب القاذف و أصلح عمله و بدل إساءته إحسانا زال عنه الفسق و كذلك تقبل شهادته على الصحيح

(فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)يغفر الذنوب جميعا لمن تاب و أناب

و إنما يجلد القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجا﴿٥﴾ فإن كان زوجا فقد ذكر بقوله:-

*و إنما كانت شهادات الزوج على زوجته دارئة عنه الحد لأن الغالب أن الزوج لا يقدم على رمى زوجته التى يدنسه ما يدنسها إلا إذا كان صادقا و لأن له فى ذلك حقا و خوفا من إلحاق أولاد ليسوا منه به

و لغير ذلك من الحكم المفقودة فى غيره فقال:-

(وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ)الحرائر لا المملوكات(وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ)على رميهم بذلك

(شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ)بأن لم يقيموا شهداء على ما رموهم به(فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

سماها شهادة لأنها نائبة مناب الشهود بأن يقول:–«أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميتها به»﴿٦﴾

(وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ)

يزيد فى الخامسة مع الشهادة المذكورة مؤكدا تلك الشهادات بأن يدعو على نفسه باللعنة(إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ)

فإذا تم لعانه سقط عنه حد القذف ظاهر الآيات و لو سمى الرجل الذى رماها به فإنه يسقط حقه تبعا لها﴿٧﴾

و هل يقام عليها الحد بمجرد لعان الرجل و نكولها أم تحبس؟

فيه قولان للعلماء الذى يدل عليه الدليل أنه يقام عليها الحد بدليل قوله:–

(وَيَدۡرَؤُاْ)يدفعوا عنها العذاب إذ قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها

(عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ)إلى آخره فلولا أن العذاب و هو الحد قد وجب بلعانه لم يكن لعانها دارئا له.

(أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ)﴿٨﴾

(وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ)و تزيد فى الشهادة الخامسة الدعوة على نفسها باستحقاقها غضب الله

(إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)فى اتهامه لها و فى هذه الحال يفرق بينهما﴿٩﴾

*فإذا تم اللعان بينهما فرق بينهما إلى الأبد و انتفى الولد الملاعن عليه

و ظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان منه و منها و اشتراط الترتيب فيها و أن لا ينقص منها شيء و لا يبدل شيء بشيء و أن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته لا بالعكس

و أن الشبه فى الولد مع اللعان لا عبرة به كما لا يعتبر مع الفراش و إنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو

(وَلَوۡلَا فَضۡلُ)تفضُّل (ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ)-أيها المؤمنون-بهذا التشريع للأزواج و الزوجات لأحلَّ بالكاذب من المتلاعنين ما دعا به على نفسه

(وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ)لمن تاب مِن عباده(حَكِيمٌ)فى شرعه و تدبيره.

*و جواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام أى:–لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما ما دعا به على نفسه و من رحمته و فضله ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين لشدة الحاجة إليه و أن بين لكم شدة الزنا و فظاعته و فظاعة القذف به و أن شرع التوبة من هذه الكبائر و غيرها

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى4747 -عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:«الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»

فَقَالَ:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ:-

«البَيِّنَةَ وَ إِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ» فَقَالَ هِلاَلٌ:-وَ الَّذِى بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ فَلَيُنْزِلَنَّ اللَّهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِى مِنَ الحَدِّ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ)[النور: 6]فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ:-(إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ)[النور: 9]

فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺفَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَجَاءَ هِلاَلٌ فَشَهِدَ وَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ:-

«إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ»

ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الخَامِسَةِ وَقَّفُوهَا وَ قَالُوا:-إِنَّهَا مُوجِبَةٌ(للعذاب الأليم عند الله تعالى إن كنت كاذبة)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:-فَتَلَكَّأَتْ(توقفت وتباطأت عن الشهادة)وَ نَكَصَتْ(أحجمت عن استمرارها في اللعان)حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ

ثُمَّ قَالَتْ:-لاَ أَفْضَحُ قَوْمِى سَائِرَ اليَوْمِ(لا أكون سبب فضيحتهم فيما بقى من الأيام يقال لهم منكم امرأة زانية)فَمَضَتْ(فى إتمام اللعان)

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-«أَبْصِرُوهَا(انظروا إليها وراقبوها عندما تضع حملها)فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ العَيْنَيْنِ(شديد سواد الجفون خلقة من غير اكتحال)

سَابِغَ الأَلْيَتَيْنِ(ضخمهما)خَدَلَّجَ(ممتلئ)السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ»فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-

«لَوْلاَ مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ(ما قضى فيه من أنه لا يحد أحد بدون بينة أو إقرار وأن اللعان يدفع عنها الرجم)لَكَانَ لِي وَ لَهَا شَأْنٌ»

(كان لي معها موقف آخر أى لرجمتها ولفعلت بها ما يكون عبرة لغيرها)

*البخارى 4745 - عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ عُوَيْمِرًا أَتَى عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ وَ كَانَ سَيِّدَ بَنِى عَجْلاَنَ فَقَالَ: كَيْفَ تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟

سَلْ لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺعَنْ ذَلِكَ فَأَتَى عَاصِمٌ النَّبِيَّ ﷺفَقَالَ:-

يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المَسَائِلَ فَسَأَلَهُ عُوَيْمِرٌ فَقَالَ:-

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَرِهَ المَسَائِلَ وَ عَابَهَا قَالَ عُوَيْمِرٌ:-وَ اللَّهِ لاَ أَنْتَهِى حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَجَاءَ عُوَيْمِرٌ فَقَالَ:-يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-«قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ القُرْآنَ فِيكَ وَ فِي صَاحِبَتِكَ»

فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺبِالْمُلاَعَنَةِ(ملاعنة الرجل زوجته وسميت بذلك لقول الزوج في المرة الخامسة وعلى لعنة الله إن كنت كاذبا فيما رميتها به من الزنا)

بِمَا سَمَّى اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَلاَعَنَهَا ثُمَّ قَالَ:-

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ حَبَسْتُهَا(أمسكتها عندي وأبقيتها في عصمتى)فَقَدْ ظَلَمْتُهَا(لم أعاشرها بالمعروف ولم أوفها حقها كزوجة لأن نفسي تأنف من التمتع بها)

فَطَلَّقَهَا فَكَانَتْ سُنَّةً(حكما شرعيا يعمل به)لِمَنْ كَانَ بَعْدَهُمَا فِي المُتَلاَعِنَيْنِ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«انْظُرُوا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمَ(شديد السواد)أَدْعَجَ العَيْنَيْنِ(أكحل أو شديد سواد العينين)عَظِيمَ الأَلْيَتَيْنِ(ضخم العجز مثنى ألية)

خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ(ساقاه ممتلئتان لحما)فَلاَ أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلَّا قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا

وَ إِنْ جَاءَتْ بِهِ أُحَيْمِرَ(تصغير أحمر أى شديد الشقرة) كَأَنَّهُ وَحَرَةٌ(دويبة تترامى على اللحم والطعام فتفسده وهى من أنواع الوزغ - سام أبرص-شبهه بها لحمرتها وقصرها)فَلاَ أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلَّا قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا»

فَجَاءَتْ بِهِ عَلَى النَّعْتِ(الوصف)الَّذِى نَعَتَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَصْدِيقِ عُوَيْمِرٍ فَكَانَ بَعْدُ يُنْسَبُ إِلَى أُمِّهِ﴿١٠﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾

*لما ذكر فيما تقدم تعظيم الرمى بالزنا عموما صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة التي وقعت على أشرف النساء أم المؤمنين رضى الله عنها و هذه الآيات نزلت فى قصة الإفك المشهورة الثابتة فى الصحاح و السنن و المسانيد.

قصة الإفك 11-22

و حاصلها أن النبيﷺ فى بعض غزواته و معه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق فانقطع عقدها فانحبست فى طلبه و رحلوا جملها و هودجها فلم يفقدوها ثم استقل الجيش راحلا وجاءت مكانهم و علمت أنهم إذا فقدوها رجعوا إليها فاستمروا في مسيرهم و كان صفوان بن المعطل السلمى من أفاضل الصحابة ﷺ قد عرس فى أخريات القوم و نام فرأى عائشة رضى الله عنها فعرفها فأناخ راحلته فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه ثم جاء يقود بها بعد ما نزل الجيش فى الظهيرة

فلما رأى بعض المنافقين الذين فى صحبة النبىﷺ فى ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال أشاع ما أشاع و وشى الحديث و تلقفته الألسن حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين و صاروا يتناقلون هذا الكلام و انحبس الوحى مدة طويلة عن الرسول ﷺ و بلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة فحزنت حزنا شديدا فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات و وعظ الله المؤمنين و أعظم ذلك و وصاهم بالوصايا النافعة.

(إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ)الكذب الشنيع و هو رمى أم المؤمنين

(عُصۡبَةٞ)جماعة(مِّنكُمۡ)منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين منهم المؤمن الصادق فى إيمانه و لكنه اغتر بترويج المنافقين و منهم المنافق.

(لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ)يا آل أبي بكر

(بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ)فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لِسَانُ صِدْقٍ فى الدُّنْيَا وَ رِفْعَةُ مَنَازِلَ فِي الْآخِرَةِ وَ إِظْهَارُ شَرَفٍ لَهُمْ بِاعْتِنَاءِ اللَّهِ بِعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَرَاءَتَهَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الذى﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: 42]وَ لِهَذَا لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا ابْنُ عَبَّاسٍ‌رضي الله عنه وَ هِيَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ

*البخارى

4753 عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي حُسَيْنٍ قَالَ:-حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ:
اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ وَ هِيَ مَغْلُوبَةٌ قَالَتْ: أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ
فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِﷺوَمِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ قَالَتْ:-ائْذَنُوا لَهُ فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟
قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ قَالَ: «فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِﷺ وَ لَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ
وَ نَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ» وَ دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلاَفَهُ فَقَالَتْ:-
دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ وَ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا

*لما تضمن ذلك تبرئة أم المؤمنين و نزاهتها و التنويه بذكرها حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبىﷺ

و لما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة فكل هذا خير عظيم

لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك و إذا أراد الله أمرا جعل له سببا

و لذلك جعل الخطاب عاما مع المؤمنين كلهم و أخبر أن قدح بعضهم ببعض كقدح في أنفسهم

ففيه أن المؤمنين في توادهم و تراحمهم و تعاطفهم و اجتماعهم على مصالحهم كالجسد الواحد

و المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا

فكما أنه يكره أن يقدح أحد فى عرضه فليكره من كل أحد أن يقدح في أخيه المؤمن الذي بمنزلة نفسه

و ما لم يصل العبد إلى هذه الحالة فإنه من نقص إيمانه و عدم نصحه.

(لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ)

و هذا وعيد للذين جاءوا بالإفك و أنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك و قد حد النبى ﷺمنهم جماعة

*لِكُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ و رَمَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْفَاحِشَةِ نَصِيبٌ عَظِيمٌ مِنَ الْعَذَابِ

(وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ)أى: معظم الإفك و هو المنافق الخبيث عبد الله بن أبى ابن سلول – لعنه الله–

*قِيلَ: ابْتَدَأَ بِهِ_الَّذِى كَانَ يَجْمَعُهُ وَ يَسْتَوْشِيهِ وَ يُذِيعُهُ وَ يُشِيعُهُ

(لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ)ألا و هو الخلود فى الدرك الأسفل من النار

*البخارى4750 - عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنهَا زَوْجِ النَّبِىِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كُلٌّ حَدَّثَنِى طَائِفَةً مِنَ الحَدِيثِ وَ بَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا
وَ إِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ الَّذِى حَدَّثَنِى عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا:-
أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِىِّ ﷺ قَالَتْ:-
كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺمَعَهُ
قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِى غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِى فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺبَعْدَمَا نَزَلَ الحِجَابُ
فَأَنَا أُحْمَلُ فِى هَوْدَجِى وَ أُنْزَلُ فِيهِ فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ
وَ دَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ
فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحلى فَإِذَا عِقْدٌ لِى مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ
فَالْتَمَسْتُ عِقْدِى وَ حَبَسَنِى ابْتِغَاؤُهُ وَ أَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِى
فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِى فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِى الَّذِى كُنْتُ رَكِبْتُ وَ هُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّى فِيهِ
وَ كَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ إِنَّمَا تَأْكُلُ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ
حِينَ رَفَعُوهُ وَ كُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الجَمَلَ وَ سَارُوا فَوَجَدْتُ عِقْدِى بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ
فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَ لَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَ لاَ مُجِيبٌ فَأَمَمْتُ مَنْزِلِى الَّذِى كُنْتُ بِهِ
وَ ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِى مَنْزِلِى غَلَبَتْنِى عَيْنِى فَنِمْتُ
وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِىُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ فَأَدْلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِى فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ
نَائِم فَأَتَانِى فَعَرَفَنِى حِينَ رَآنِى وَ كَانَ رَآنِى قَبْلَ الحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِى فَخَمَّرْتُ وَجْهِى
بِجِلْبَابِي وَ وَاللَّهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَ لاَ سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا
فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِى نَحْرِ الظَّهِيرَةِ فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ
وَ كَانَ الَّذِي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا
وَ النَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَ هُوَ يَرِيبُنِى فِى وَجَعِى
أَنِّي لاَ أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺاللُّطَفَ الَّذِى كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِى إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَيُسَلِّمُ
ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟» ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَذَاكَ الَّذِى يَرِيبُنِى وَ لاَ أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقَهْتُ
فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ وَ هُوَ مُتَبَرَّزُنَا وَ كُنَّا لاَ نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ وَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ
الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا وَ أَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي التَّبَرُّزِ قِبَلَ الغَائِطِ فَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ
بُيُوتِنَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ وَ هِىَ ابْنَةُ أَبِى رُهْمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَ أُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِى بَكْرٍ
الصِّدِّيقِ وَ ابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَ أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي وَ قَدْ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ
فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟
قَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ أَوَلَمْ تَسْمَعِى مَا قَالَ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: وَ مَا قَالَ؟فَأَخْبَرَتْنِى بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ
فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِى فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِى وَ دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺتَعْنِى سَلَّمَ ثُمَّ قَالَ:-«كَيْفَ تِيكُمْ»
فَقُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِىَ أَبَوَيَّ قَالَتْ: وَ أَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا
قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهْ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟
قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا
وَ لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا قَالَتْ: فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟

قَالَتْ:-فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَ لاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حَتَّى أَصْبَحْتُ أَبْكِي
فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺبِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِى يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الوُدِّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهْلَكَ وَ لاَ نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا
وَ أَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَ النِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَ إِنْ تَسْأَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺبَرِيرَةَ فَقَالَ: «أَىْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَىْءٍ يَرِيبُكِ؟»
قَالَتْ بَرِيرَةُ: لاَ وَ الَّذِى بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَعْذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ
قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺوَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ:-«يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِى مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِى أَذَاهُ فِى أَهْلِ بَيْتِي فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِى إِلَّا خَيْرًا وَ لَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا
وَ مَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِى إِلَّا مَعِى»فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ
فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ وَ إِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَ هُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ وَ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَ لَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لاَ تَقْتُلُهُ وَ لاَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ
فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَ هُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ:-كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ فَتَثَاوَرَ الحَيَّانِ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا
وَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺقَائِمٌ عَلَى المِنْبَرِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَ سَكَتَ
قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِى ذَلِكَ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَ لاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ قَالَتْ: فَأَصْبَحَ أَبَوَاىَ عِنْدِى
وَ قَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَ يَوْمًا لاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ وَ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ يَظُنَّانِ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِى
قَالَتْ: فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِى وَ أَنَا أَبْكِى فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ
فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِى مَعِى قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ
قَالَتْ: وَ لَمْ يَجْلِسْ عِنْدِى مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا وَ قَدْ «لَبِثَ» شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِى شَأْنِى
قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺحِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ:-«أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِى عَنْكِ كَذَا وَ كَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ وَ إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِى اللَّهَ وَ تُوبِى إِلَيْهِ
فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللَّهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»قَالَتْ:-
فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺمَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِى حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً فَقُلْتُ لِأَبِي:-
أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺفِيمَا قَالَ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِى مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لِأُمِّى: أَجِيبِى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
قَالَتْ: مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ:-فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لاَ أَقْرأُ كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ:-
إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَ صَدَّقْتُمْ بِهِ
فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لاَ تُصَدِّقُونِى بِذَلِكَ وَ لَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّى وَ اللَّهِ مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ قَالَ{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ}[يوسف: 18]
قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِى قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِى
وَ لَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِى شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى وَ لَشَأْنِي فِي نَفْسِى كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى وَ لَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺفِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِى اللَّهُ بِهَا

قَالَتْ:-فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَ لاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ وَ هُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الَّذِى يُنْزَلُ عَلَيْهِ
قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّىَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺسُرِّىَ عَنْهُ وَ هُوَ يَضْحَكُ فَكَانَتْ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا:-
«يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ بَرَّأَكِ»فَقَالَتْ أُمِّى: قُومِى إِلَيْهِ قَالَتْ:-فَقُلْتُ:-لاَ وَاللَّهِ لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ
وَ لاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ لاَ تَحْسِبُوهُ﴾
العَشْرَ الآيَاتِ كُلَّهَا فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ
وَ كَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَ فَقْرِهِ:-
وَ اللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِى قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ:-{وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي القُرْبَى وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَ اللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِى كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ
وَ قَالَ: وَاللَّهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا قَالَتْ عَائِشَةُ: وَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيَسْأَلُ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِى فَقَالَ:-«يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟»فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِى سَمْعِى وَ بَصَرِى مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا
قَالَتْ:-وَ هِيَ الَّتِى كَانَتْ تُسَامِينِى مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالوَرَعِ وَ طَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الإِفْكِ 11

*ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال:–

(لَّوۡلَآ)هلا(إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ)ظَنُّوا الْخَيْرَ فَإِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلُهُ وَ أَوْلَى بِهِ هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَاطِنِ

(وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا)
قَاسُوا ذَلِكَ الْكَلَامَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَإِنْ كَانَ لَا يَلِيقُ بِهِمْ فَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى.
أى: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيرا و هو السلامة مما رموا به و أن ما معهم من الإيمان المعلوم يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل

(وَقَالُواْ)بسبب ذلك الظن(هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ)كذب و بهت من أعظم الأشياء و أبينها.
فهذا من الظن الواجب حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن مثل هذا الكلام أن يبرئه بلسانه و يكذب القائل لذلك.

(لَّوۡلَا)هلا(جَآءُو عَلَيۡهِ)جاء الرامون على ما رموا به(بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ)أى: عدول مرضيين.

(فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ)و إن كانوا فى أنفسهم قد تيقنوا ذلك فإنهم كاذبون فى حكم الله لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك من دون أربعة شهود و لهذا قال:–

(فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ)و لم يقل«فأولئك هم الكاذبون»و هذا كله من تعظيم حرمة عرض المسلم

بحيث لا يجوز الإقدام على رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق.

(وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ)بحيث شملكم إحسانه فيهما في أمر دينكم و دنياكم

(لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ)خضتم(فِيهِ)من شأن الإفك

(عَذَابٌ عَظِيمٌ)لاستحقاقكم ذلك بما قلتم و لكن من فضل الله عليكم و رحمته أن شرع لكم التوبة و جعل العقوبة مطهرة للذنوب.

*وَ هَذَا فِيمَنْ عِنْدَهُ إِيمَانٌ رَزَقَهُ اللَّهُ بِسَبَبِهِ التَّوْبَةَ إِلَيْهِ كمِسْطَح وَ حَسَّانَ و حَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ أُخْتِ زينبَ بِنْت جَحْش.

فَأَمَّا مَنْ خَاضَ فِيهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ وَ أَضْرَابِهِ فَلَيْسَ أُولَئِكَ مُرَادِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يُعَادِلُ هَذَا وَ لَا مَا يُعَارِضُهُ

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ)تلقفونه و تلقونه(بِأَلْسِنَتِكُمْ)بعضكم إلى بعض و تستوشون حديثه و هو قول باطل

(وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ)و الأمران محظوران التكلم بالباطل و القول بلا علم

(وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا)فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه و تطهروا بعد ذلك

*البخاري6478 -عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ﷛ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:-قَالَ:-

«إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ(مما يرضي الله تعالى)لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا(لا يبالى بها ولا يلتفت إلى معناها خاطره ولا يعتد بها ولا يعيها بقلبه)يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ

وَ إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ (مما يغضبه ولا يرضاه)لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا(يسقط بسببها) فِي جَهَنَّمَ»

(وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ)و هذا فيه الزجر البليغ عن تعاطى بعض الذنوب على وجه التهاون بها

فإن العبد لا يفيده حسبانه شيئا و لا يخفف من عقوبة الذنب بل يضاعف الذنب و يسهل عليه مواقعته مرة أخرى.

(وَلَوْلَآ)هلا(إِذْ سَمِعْتُمُوهُ)–أيها المؤمنون– كلام أهل الإفك(قُلْتُم)منكرين لذلك معظمين لأمره:–

(مَّا يَكُونُ)ينبغي و ما يليق

(لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا)بنا الكلام بهذا الإفك المبين لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح

(سُبْحَٰنَكَ)تنزيها لك من كل سوء و عن أن تبتلى أصفياءك بالأمور الشنيعة(هَٰذَا بُهْتَٰنٌ)كذب(عَظِيمٌ)16

(يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ)لنظيره(أَبَدًا)من رَمْيِ المؤمنين بالفجور فالله يعظكم و ينصحكم عن ذلك

و نعم المواعظ و النصائح من ربنا فيجب علينا مقابلتها بالقبول و الإذعان و التسليم و الشكر له

على ما بين لنا (إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ)(إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

دل ذلك على أن الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات17

(وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ)

الآيَاتِ المشتملة على بيان الأحكام و الوعظ و الزجر و الترغيب و الترهيب يوضحها لكم توضيحا جليا.

(وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)أى: كامل العلم عام الحكمة

فمن علمه و حكمته أن علمكم من علمه و إن كان ذلك راجعا لمصالحكم في كل وقت(١٨)

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ)أى: الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة فيحبون أن تشتهر

(ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)موجع للقلب و البدن و ذلك لـ:-

غشه لإخوانه المسلمين و محبة الشر لهم و جراءته على أعراضهم

فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة و استحلاء ذلك بالقلب فكيف بما هو أعظم من ذلك من إظهاره و نقله؟و سواء كانت الفاحشة صادرة أو غير صادرة.

و كل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين و صيانة أعراضهم كما صان دماءهم و أموالهم

و أمرهم بما يقتضى المصافاة و أن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه و يكره له ما يكره لنفسه

(فِى ٱلدُّنْيَا)بإقامة الحد عليهم وغيره من البلايا الدنيوية(وَٱلْءَاخِرَةِ)بعذاب النار إن لم يتوبوا

(وَٱللَّهُ)وحده(يَعْلَمُ)كذبهم و يعلم مصالح عباده و عواقب الأمور

(وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)فلذلك علمكم و بين لكم ما تجهلونه(١٩)

(وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ)قد أحاط بكم من كل جانب(وَرَحْمَتُهُۥ)عليكم

(وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)لَوْلَا هَذَا لَكَانَ أَمْرٌ آخَرُ وَ لَكِنَّهُ تَعَالَى رُؤُوفٌ بِعِبَادِهِ رَحِيمٌ بِهِمْ.
فَتَابَ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ و طَهَّرَ مَنْ طَهَّرَ مِنْهُمْ بِالْحَدِّ الَّذِى أُقِيمَ عَلَيْهِ

*لما بين لكم هذه الأحكام و المواعظ و الحكم الجليلة و لما أمهل من خالف أمره و لكن فضله و رحمته

و أن ذلك وصفه اللازم آثر لكم من الخير الدنيوى و الأخروى ما لن تحصوه أو تعدوه(٢٠)

و لما نهى عن هذا الذنب بخصوصه نهى عن الذنوب عموما فقال:-

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ)طرق و وساوس(ٱلشَّيۡطَٰنِۚ)

و خطوات الشيطان يدخل فيها:-سائر المعاصى المتعلقة بالقلب و اللسان و البدن.

و من حكمته تعالى أن بين الحكم و هو: النهى عن اتباع خطوات الشيطان.

و الحكمة و هو بيان ما فى المنهى عنه من الشر المقتضى و الداعى لتركه فقال:-

(وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ)

(بِٱلۡفَحۡشَآءِ)ما تستفحشه العقول و الشرائع من الذنوب العظيمة مع ميل بعض النفوس إليه.

(وَٱلۡمُنكَرِ)و هو ما تنكره العقول و لا تعرفه.

فالمعاصى التى هى خطوات الشيطان لا تخرج عن ذلك فنهى الله عنها للعباد نعمة منه عليهم أن يشكروه و يذكروه لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالرذائل و القبائح فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة و نحوها

(وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ)تطهر(مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا)من اتباع خطوات الشيطان

لأن الشيطان يسعى هو و جنده في الدعوة إليها و تحسينها و النفس ميالة إلى السوء أمارة به

و النقص مستول على العبد من جميع جهاته و الإيمان غير قوى

فلو خلى و هذه الدواعى ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب و السيئات و النماء بفعل الحسنات

فإن الزكاء يتضمن الطهارة و النماء و لكن فضله و رحمته أوجبا أن يتزكى منكم من تزكى.

و كان من دعاء النبي ﷺ:–«اللهم آت نفسى تقواها و زكها أنت خير من زكاها أنت وليها و مولاها»

و لهذا قال:–(وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ)

من يعلم منه أن يزكى بالتزكية مَنْ خَلْقِهِ وَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يُرْدِيهِ فِي مَهَالِكِ الضَّلَالِ وَ الْغَيِّ و لهذا قال:–

(وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)﴿٢١﴾

(وَلَا يَأۡتَلِ)يحلف(أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ)الطَّول وَ الصَّدَقَةِ وَ الْإِحْسَانِ(وَٱلسَّعَةِ)الجِدَةَ

(أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ)لِيتجاوزوا عن إساءتهم

(وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ)و لا يعاقبوهم

*كان من جملة الخائضين فى الإفك «مسطح بن أثاثة»و هو قريب لأبى بكر الصديق رضي الله عنه

و كان مسطح فقيرا من المهاجرين فى سبيل الله(ابن خالة الصديق)فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه لقوله الذى قال.

فنزلت هذه الآية ينهاهم عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه و يحثه على العفو و الصفح و يعده بمغفرة الله إن غفر له فقال:–

(أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ)يتجاوز الله عنكم(وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ)

و فى هذه الآية دليل على النفقة على القريب و أنه لا تترك النفقة و الإحسان بمعصية الإنسان

و الحث على العفو و الصفحو لو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.

*فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ فَكَمَا تَغْفِرُ عَنِ الْمُذْنِبِ إِلَيْكَ نَغْفِرُ لَكَ وَ كَمَا تَصْفَحُ نَصْفَحُ عَنْكَ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه:-بَلَى وَ اللَّهِ إِنَّا نُحِبُّ -يَا رَبَّنَا -أَنْ تَغْفِرَ لَنَا.

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ مَا كَانَ يَصِلُهُ مِنَ النَّفَقَةِ وَ قَالَ: وَ اللَّهِ لَا أَنْزَعُهَا مِنْهُ أَبَدًا فِي مُقَابَلَةِ مَا كَانَ قَالَ:-

وَ اللَّهِ لَا أَنْفَعُهُ بِنَافِعَةٍ أَبَدًا فَلِهَذَا كَانَ الصِّدِّيقُ هُوَ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه وَ عَنْ بِنْتِهِ﴿٢٢﴾

والله لا أنزعها منه

فِي قصة الإفكِ التي كان فيمن خاض فيها مِسْطَحُ بن أُثَاثَة، وكانت أمه بنت خالة الصِّدِّيق، وكان مِسْطَحٌ رجلاً فقيرًا، وكان الصديق ينفق عليه، فلما قال ما قاله في عائشة رضي الله عنها، ونزلت الآيات ببراءتها قال أبو بكر: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ النور ٢٢ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[٢]، قال أبو بكر: بلى، والله إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مِسْطَحٍ النفقةَ التي كان يُنفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا[٣].

*ثم ذكر الوعيد الشديد على رمى المحصنات فقال:–

جزاء القذف في الآخرة 23-26

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ)العفائف عن الفجور

(ٱلۡغَٰفِلَٰتِ)التي لم يخطر ذلك بقلوبهن(ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ)و اللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير.

و أكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين

*البخارى2766 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-«اجْتَنِبُوا(ابتعدوا)السَّبْعَ المُوبِقَاتِ(المهلكات)»

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَ السِّحْرُ(هو في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه وبمعنى صرف الشيء عن وجهه ويستعمل بمعنى الخداع. والمراد هنا ما يفعله المشعوذون من تخييلات وتمويه تأخذ أبصار المشاهدين وتوهمهم الإتيان بحقيقة أو تغييرها)

وَ قَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ(كالقتل قصاصا)

وَ أَكْلُ الرِّبَا وَ أَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ وَ التَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ(الفرار عن القتال يوم ملاقاة الكفار والزحف في الأصل الجماعة الذين يزحفون إلى العدو أي يمشون إليهم بمشقة مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على مقعدته)وَ قَذْفُ(هو الاتهام والرمي بالزنا)المُحْصَنَاتِ(جمع محصنة وهى العفيفة التى حفظت فرجها وصانها الله من الزنا)المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ(البريئات اللواتي لا يفطن إلى ما رمين به من الفجور)»

(وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ)و هذا زيادة على اللعنة أبعدهم عن رحمته و أحل بهم شدة نقمته.

*فَأُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِالدُّخُولِ فِي هَذَا مِنْ كُلِّ مُحَصَّنَةٍ وَ لَا سِيَّمَا الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ النُّزُولِ وَ هِيَ عَائِشَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَ قَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَاطِبَةً عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّهَا بَعْدَ هَذَا وَ رَمَاهَا بِهِ بَعْدَ هذا الَّذِي ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ لِأَنَّهُ مُعَانِدٌ لِلْقُرْآنِ.و ذلك العذاب يوم القيامة

(يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ)

فكل جارحة تشهد عليهم بما عملته ينطقها الذي أنطق كل شيء

فلا يمكنه الإنكار و لقد عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم

*مسلم(2968)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟»

قَالُوا: لَا قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟»

قَالُوا: لَا قَالَ:فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا

قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ:-أَيْ فُلْ(معناه يا فلان وهو ترخيم على خلاف القياس وقيل هي لغة بمعنى فلان حكاها القاضي)

أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَ أُسَوِّدْكَ(أجعلك سيدا على غيرك)وَ أُزَوِّجْكَ وَ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَ الْإِبِلَ

وَ أَذَرْكَ تَرْأَسُ(أي تكون رئيس القوم وكبيرهم)وَ تَرْبَعُ(المرباع الذى كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة وهو ربعها يقال ربعتهم أى أخذت ربع أموالهم ومعناه ألم أجعلك رئيسا مطاعا قال القاضي بعد حكايته نحو ما ذكرته عندى أن معناه تركتك مستريحا لا تحتاج إلى مشقة وتعب من قولهم اربع على نفسك أى ارفق بها)؟

فَيَقُولُ: بَلَى قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟

فَيَقُولُ: لَا فَيَقُولُ:-فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ:-

أَيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَ أُسَوِّدْكَ وَ أُزَوِّجْكَ وَ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَ الْإِبِلَ وَ أَذَرْكَ تَرْأَسُ وَ تَرْبَعُ

فَيَقُولُ: بَلَى أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ:-لَا فَيَقُولُ:- فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي

ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَ بِكِتَابِكَ وَ بِرُسُلِكَ وَ صَلَّيْتُ وَ صُمْتُ وَ تَصَدَّقْتُ وَ يُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ فَيَقُولُ: هَاهُنَا(معناه قف ههنا حتى يشهد عليك جوارحك إذ قد صرت منكرا)إِذًا قَالَ:

ثُمَّ يُقَالُ لَهُ:-الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ وَ يَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ:-مَنْ ذَا الَّذِى يَشْهَدُ عَلَيَّ؟
فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَ يُقَالُ لِفَخِذِهِ وَ لَحْمِهِ وَ عِظَامِهِ:-انْطِقِى فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَ لَحْمُهُ وَ عِظَامُهُ بِعَمَلِهِ
وَ ذَلِكَ لِيُعْذِرَ(من الإعذار والمعنى ليزيل الله عذره من قبل نفسه بكثرة ذنوبه وشهادة أعضائه عليه بحيث لم يبق له عذر يتمسك به)مِنْ نَفْسِهِ وَ ذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَ ذَلِكَ الَّذِى يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ(٢٤)

(يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ)جزاءهم على أعمالهم الجزاء

(ٱلْحَقَّ)الذى بالعدل و القسط يجدون جزاءها موفرا لم يفقدوا منها شيئا

(وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا

(وَيَعْلَمُونَ)فى ذلك الموقف العظيم(أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ)

فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى.

فأوصافه العظيمة حق و أفعاله هى الحق و عبادته هى الحق و لقاؤه حق و وعده و وعيده و حكمه الدينى و الجزائى حق و رسله حق فلا ثم حق إلا فى الله و ما من الله(٢٥)

(ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ)أى:– كل خبيث من الرجال و النساء و الكلمات و الأفعال مناسب للخبيث و موافق له و مقترن به و مشاكل له

(وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ)و كل طيب من الرجال و النساء و الكلمات و الأفعال مناسب للطيب و موافق له و مقترن به و مشاكل له

فهذه كلمة عامة و حصر لا يخرج منه شيء من أعظم مفرداته أن الأنبياء – خصوصا أولي العزم منهم خصوصا سيدهم محمد ﷺ الذى هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء فالقدح في عائشة رضى الله عنها بهذا الأمر قدح فى النبى ﷺ

و هو المقصود بهذا الإفك من قصد المنافقين فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺيعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح. فكيف و هى هى؟

صديقة النساء و أفضلهن و أعلمهن وأطيبهن حبيبة رسول رب العالمين التى لم ينزل الوحى عليه و هو فى لحاف زوجة من زوجاته غيرها

ثم صرح بذلك بحيث لا يبقى لمبطل مقالا و لا لشك و شبهة مجالا فقال:–

(أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ)و الإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلا و للمؤمنات المحصنات الغافلات تبعا

(لَهُم مَّغْفِرَةٌ)تستغرق الذنوب بِسَبَبِ مَا قِيلَ فِيهِمْ مِنَ الْكَذِبِ

(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)فى الجنة صادر من الرب الكريم. وَ فِيهِ وَعْدٌ بِأَنْ تَكُونَ زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ(٢٦)

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾

عندما بلغتُ الثامنة عشرة من عمري كُنت فتاة متدينة، وتقدم لخطبتي حينها شاب غير متدين، غير أن الجميع كان يُثني على أخلاقه واستقامة سلوكه، وكُنت مترددة جدا في قبوله؛ بل كنت أقرب إلى الرفض، ومع أن والدي قد سأل عنه، ووجد فيه الصفات المناسبة، إلا أن ذلك لم ينطبق على أمنياتي التي كُنت أنسُجها حول زوج المستقبل، والذي كُنت أريده صالحًا طالبًا للعلم.

وذات يوم؛ جاءت إليَّ أمي تطلب مني الرد النهائي، ونظرت إليَّ وهي تقول بحنان: يا بنيتي؛ لقد استخرتِ الله وأنتِ فتاة طيبة، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾[2]، فلما سمعت الآية وقعت من نفسي موقعًا عجيبًا، وامتلأ قلبي يقينًا بأنَّ الله لن يُخيِّب أملي في أن يكون هذا الشاب هو الأنسب لي، فتوكلتُ على الله ووافقتُ على الزواج منه. النور: ٢٦.

آداب اجتماعية 27-34

آداب دخول المنزل 27-29

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا)يرشد البارى عباده المؤمنين أن لا يدخلوا بيوتا (غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ)بغير استئذان فإن في ذلك عدة مفاسد:-

1–ما ذكره الرسولﷺ حيث قال

البخارى 6241 –عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:–اطَّلَعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرٍ فِي حُجَرِ النَّبِيِّ ﷺوَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺمِدْرًى (بالمشط و قيل عود مثل المسلة يحك به الجسد و الرأس)يَحُكُّ بِهِ رَأْسَهُ فَقَالَ:–

«لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ إِنَّمَا جُعِلَ الِاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ»

فبسبب الإخلال به يقع البصر على العورات التى داخل البيوت فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

2–أن ذلك يوجب الريبة من الداخل و يتهم بالشر سرقة أو غيرها لأن الدخول خفية يدل على الشر و منع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم

(حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ)تنحنحوا أو تنخموا

*وَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّهُ قَالَ:-إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ اسْتُحِبَّ لَهُ أَنْ:-يَتَنَحْنَحَ أَوْ يُحَرِّكَ نَعْلَيْهِ

أى: يستأذنوا. سمى الاستئذان استئناسا لأن به يحصل الاستئناس و بعدمه تحصل الوحشة

(وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ)و صفة ذلك ما جاء في الحديث: « السلام عليكم أأدخل » ؟

*أبى داود 5177–عَنْ رِبْعِيٍّ قَالَ:حَدَّثَنَا رَجُلٌ مَنْ بَنِى عَامِرٍ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺوَ هُوَ فِى بَيْتٍ فَقَالَ:–أَلِجُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺلِخَادِمِهِ:اخْرُجْ إِلَى هَذَا فَعَلِّمْهُ الِاسْتِئْذَانَ فَقُلْ لَهُ: قُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ؟

فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ؟فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ

(ذَٰلِكُمْ)أي:–الاستئذان المذكور(ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ)خير للطرفين للمستأذن و لأهل البيت

*لاشتماله على عدة مصالح و هو من مكارم الأخلاق الواجبة فإن أذن دخل المستأذن.

(لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)بفعلكم له- أوامر الله فتطيعوه.

*هَذِهِ آدَابٌ شَرْعِيَّةٌ أَدَّبَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ ذَلِكَ فِي الِاسْتِئْذَانِ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِهِمْ حَتَّى يَسْتَأْنِسُوا أَيْ: يَسْتَأْذِنُوا قَبْلَ الدُّخُولِ وَ يُسَلِّمُوا بَعْدَهُ.

وَ يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَأْذِنَ ثَلَاثًا فَإِنْ أُذِنَ لَهُ وَ إِلَّا انْصَرَفَ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ

*البخاري6245 - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ:-

كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ إِذْ جَاءَ أَبُو مُوسَى كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ فَقَالَ:-

اسْتَأْذَنْتُ عَلَى عُمَرَ ثَلاَثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ؟

قُلْتُ: اسْتَأْذَنْتُ ثَلاَثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ وَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاَثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ»

فَقَالَ:وَ اللَّهِ لَتُقِيمَنَّ عَلَيْهِ بِبَيِّنَةٍ أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ:-

وَ اللَّهِ لاَ يَقُومُ مَعَكَ إِلَّا أَصْغَرُ القَوْمِ فَكُنْتُ أَصْغَرَ القَوْمِ فَقُمْتُ مَعَهُ فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

*البخاري:2062-فَقَالَ عُمَرُ:-

أَخَفِيَ هَذَا عَلَيَّ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺأَلْهَانِي الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ يَعْنِي الخُرُوجَ إِلَى تِجَارَةٍ

*ثُمَّ لِيُعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُسْتَأْذِنِ عَلَى أَهْلِ الْمَنْزِلِ أَلَّا يَقِفَ تِلْقَاءَ الْبَابِ بِوَجْهِهِ

*أبي داود 5186 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

«إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تِلْقَاءِ وَجْهِهِ وَ لَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ أَوِ الْأَيْسَرِ وَ يَقُولُ السَّلَامُ عَلَيْكُمُ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ»وَ ذَلِكَ أَنَّ الدُّورَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ سُتُورٌ

*الموطأ باب الاستئذان رقم -1 –عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَأَلَهُ رَجُلٌ

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي؟فَقَالَ: «نَعَمْ» قَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا» فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي خَادِمُهَا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :-

«اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟»قَالَ: لَا قَالَ: «فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا»(٢٧)

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

(فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ)

أى: فلا تمتنعوا من الرجوع و لا تغضبوا منه فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقا واجبا لكم

و إنما هو متبرع فإن شاء أذن أو منع فأنتم لا يأخذ أحدكم الكبر و الاشمئزاز من هذه الحال

(هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ)أشد لتطهيركم من السيئات و تنميتكم بالحسنات فإن الرجوع عندئذ أطهر لكم

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)فيجازى كل عامل بعمله من كثرة و قلة و حسن و عدمه

هذا الحكم فى البيوت المسكونة سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا و فى البيوت غير المسكونة التى لا متاع فيها للإنسان ﴿٢٩﴾

*و أما البيوت التى ليس فيها أهلها و فيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه و ليس فيها أحد يتمكن من استئذانه و ذلك كبيوت الكراء و غيرها فقد ذكرها بقوله:-

(لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ)حرج و إثم

دل على أن الدخول من غير استئذان فى البيوت السابقة أنه محرم و فيه حرج

(أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ)بيوتًا ليست مخصصة لسكنى أناس بذاتهم بل ليتمتع بها مَن يحتاج إليها و ما فيها مصلحة و انتفاع كـ:-البيوت المُعَدَّة صدقة لابن السبيل في طرق المسافرين و كدور الضيافة و غرف الطرقات و غيرها من المرافق(ليس المراد الأغراض أو العفش)

(فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ)و هذا من احترازات القرآن العجيبة

فإن قوله: (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ)لفظ عام فى كل بيت ليس ملكا للإنسان أخرج منه تعالى البيوت التى ليست ملكه و فيها متاعه و ليس فيها ساكن فأسقط الحرج فى الدخول إليها

(وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ)أحوالكم الظاهرة و الخفية و علم مصالحكم

فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه و تضطرون من الأحكام الشرعية ﴿٣٠﴾

(قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ)أرشد المؤمنين و قل لهم: الذين معهم إيمان يمنعهم من وقوع ما يخل بالإيمان:

الأمر بغض البصر للرجال و اخفاء الزينة للنساء 30-31

(يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ)

عن النظر إلى العورات و إلى النساء الأجنبيات و إلى المردان الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة و إلى زينة الدنيا التى تفتن و توقع في المحذور.

(وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ)عن الوطء الحرام في قبل أو دبر أو ما دون ذلك و عن التمكين من مسها و النظر إليها.

(ذَٰلِكَ)الحفظ للأبصار و الفروج

(أَزۡكَىٰ)أطهر و أطيب(لَهُمۡ)و أنمى لأعمالهم

فإن من حفظ فرجه و بصره:-

1-طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش

2-و زكت أعماله بسبب ترك المحرمالذي تطمع إليه النفس و تدعو إليه

3-فمن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه

4-و من غض بصره عن المحرم أنار الله بصيرته

و لأن العبد إذا حفظ فرجه و بصره عن الحرام و مقدماته مع داعى الشهوة كان حفظه لغيره أبلغو لهذا سماه الله حفظا فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه فى مراقبته و حفظه و عمل الأسباب الموجبة لحفظه:-

لم ينحفظ كذلك البصر و الفرج إن لم يجتهد العبد فى حفظهما:-أوقعاه في بلايا و محن

و تأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقا لأنه لا يباح في حالة من الأحوال و أما البصر فقال:-

(يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)أتى بأداة « من » الدالة على التبعيض فإنه يجوز النظر فى بعض الأحوال لحاجة كنظر الشاهد و العامل و الخاطب و نحو ذلك.

ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

*هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فَلَا يَنْظُرُوا إِلَّا إِلَى مَا أَبَاحَ لَهُمُ النَّظَرَ إِلَيْهِ وَ أَنْ يَغُضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْمَحَارِمِ فَإِنِ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ الْبَصَرُ عَلَى مُحرَّم مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَلْيَصْرِفْ بَصَرَهُ عَنْهُ سَرِيعًا

*مسلم (2159) عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ﷛ قَالَ:-
سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺعَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي
(ويقال بفتح الفاء وإسكان الجيم والقصر الفجأة لغتان هي البغتة ومعنى نظر الفجأة أن يقع نظره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك فيجب عليه أن يصرف بصره في الحال فإن صرف في الحال فلا إثم عليه وإن استدام النظر أثم قال القاضي قال العلماء وفي هذا حجة أنه لا يجب على المرأة أن تستر وجهها في طريقها وإنما ذلك سنة مستحبة لها - ويجب على الرجال غض البصر عنها في جميع الأحوال)

**البخارى2465 عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷛عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:
«إِيَّاكُمْ(أحذركم)وَ الجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ»فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ(غنى عنه)إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا
قَالَ: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجَالِسَ(الجلوس في تلك المجالس)فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا(ما يليق بها من آداب)»قَالُوا:-وَ مَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟
قَالَ:«غَضُّ البَصَرِ(خفض النظر عمن يمر في الطريق من النساء وغيرهن مما يثير الفتنة)وَ كَفُّ الأَذَى(عدم التعرض لأحد بقول أو فعل يتأذى به)
وَ رَدُّ السَّلاَمِ وَ أَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ»

*البخارى6474 عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺقَالَ:-
«مَنْ يَضْمَنْ(يحفظه ويؤد حقه)لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ(لسانه ولحييه مثنى لحي وهو العظم في جانب الفم)وَ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ(فرجه) أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»

*وَ لَمَّا كَانَ النَّظَرُ دَاعِيَةً إِلَى فَسَادِ الْقَلْبِ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:-النَّظَرُ سِهَامُ سُمٍّ إِلَى الْقَلْبِ
وَ لِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ كَمَا أَمَرَ بِحِفْظِ الْأَبْصَارِ الَّتِي هِيَ بَوَاعِثُ إِلَى ذَلِكَ فَقَالَ:-
{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} .و حفظُ الفَرج تَارَةً يَكُونُ بِمَنْعِهِ مِنَ الزِّنَى
كَمَا قَالَ {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ29 إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}[الْمَعَارِجِ]
وَ تَارَةً يَكُونُ بِحِفْظِهِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ

*الترمذى 2769 -عن بَهْزِ بْنُ حَكِيمٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي قَالَ: قُلْتُ:-
يَا رَسُولَ اللَّهِ عَوْرَاتُنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَ مَا نَذَرُ؟ قَالَ: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»
فَقَالَ: الرَّجُلُ يَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ فَافْعَلْ»
قُلْتُ: وَ الرَّجُلُ يَكُونُ خَالِيًا قَالَ: «فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ»

(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ)كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غَافِرٍ:19] .

*البخارى6612 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ﷛ قَالَ:-مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ
فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ وَ زِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ وَ النَّفْسُ تَمَنَّى وَ تَشْتَهِي و الفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»
*لما أمر المؤمنين بغض الأبصار و حفظ الفروج أمر المؤمنات بذلك فقال:—

(وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ)عن النظر إلى العورات و الرجال بشهوة و نحو ذلك من النظر الممنوع
*وَ لِهَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُ:-لَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الْأَجَانِبِ بِشَهْوَةٍ وَ لَا بِغَيْرِ شَهْوَةٍ أَصْلًا.
*وَ ذَهَبَ آخَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى جَوَازِ نَظَرِهِنَّ إِلَى الْأَجَانِبِ بِغَيْرِ شَهْوَةٍ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ:
*البخارى 454 - عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ
قَالَتْ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَوْمًا عَلَى بَابِ حُجْرَتِي وَ الحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ فِي المَسْجِدِ
وَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ أَنْظُرُ إِلَى لَعِبِهِمْ»

(وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ)من التمكين من جماعها أو مسها أو النظر المحرم إليها

(وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ)كالثياب الجميلة و الحلى و جميع البدن كله من الزينة

و لما كانت الثياب الظاهرة لا بد لها منها قال:-

(إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ)أى:الثياب الظاهرة التى جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها

*وَ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: كَالرِّدَاءِ وَ الثِّيَابِ يَعْنِى: عَلَى مَا كَانَ يَتَعَانَاهُ نِسَاءُ الْعَرَبِ مِنَ المِقْنعة الَّتِى تُجَلِّل ثِيَابَهَا وَ مَا يَبْدُو مِنْ أَسَافِلِ الثِّيَابِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِيهِ لِأَنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُ إِخْفَاؤُهُ.

وَ نَظِيرُهُ فِي زِيِّ النِّسَاءِ مَا يَظْهَرُ مِنْ إِزَارِهَا وَ مَا لَا يُمْكِنُ إِخْفَاؤُهُ

*الزِّينَةُ الْقُرْط و الدُّمْلُج وَ الْخَلْخَالُ وَ الْقِلَادَةُ.وَ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ بِهَذَا الْإِسْنَادِ قَالَ: الزِّينَةُ زِينَتَانِ:-

1-فَزِينَةٌ لَا يَرَاهَا إِلَّا الزَّوْجُ:-الْخَاتَمُ وَ السُّوَارُ

2-وَ زِينَةٌ يَرَاهَا الْأَجَانِبُ وَ هِىَ الظَّاهِرُ مِنَ الثِّيَابِ.

(وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ)و ليلقين بأغطية رؤوسهن على فتحات أعلى ثيابهن

من جهة صدورهن مغطيات وجوههن(ليس الجيب بمعنى خبنة الثوب التى يخبأ فيه المال و ما شابه)

*و هذا لكمال الاستتار و يدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبداؤها يدخل فيها جميع البدن كما ذكرنا.

*الْمَقَانِعَ يُعْمَلُ لَهَا صَنفات ضَارِبَاتٌ عَلَى صُدُورِ النِّسَاءِ لِتُوَارِيَ مَا تَحْتَهَا مِنْ صَدْرِهَا وَ تَرَائِبِهَا لِيُخَالِفْنَ شعارَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّة فَإِنَّهُنَّ لَمْ يَكُنَّ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ بَلْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمُرُّ بَيْنَ الرِّجَالِ مُسَفِّحَةً بِصَدْرِهَا لَا يُوَارِيهِ شَيْءٌ وَ رُبَّمَا أَظْهَرَتْ عُنُقَهَا وَ ذَوَائِبَ شَعْرِهَا وَ أَقْرِطَةَ آذَانِهَا.

فَأَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَسْتَتِرْنَ فِي هَيْئَاتِهِنَّ وَ أَحْوَالِهِنَّ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ} [الأحزاب: 59]

وَ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:{وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}و الخُمُر: جَمْعُ خِمار

وَ هُوَ مَا يُخمر بِهِ أَيْ: يُغَطَّى بِهِ الرَّأْسُ وَ هِيَ الَّتِي تُسَمِّيهَا النَّاسُ الْمَقَانِعَ.

*البخارى 4759 - عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ: أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَقُولُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) [النور: 31]«أَخَذْنَ أُزْرَهُنَّ فَشَقَّقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الحَوَاشِى فَاخْتَمَرْنَ بِهَا»

(وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ)ثم كرر النهى عن إبداء زينتهن ليستثنى منه قوله:-

(إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ)أزواجهن(أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ)يشمل الأب بنفسه و الجد و إن علا

(أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ)و يدخل فيه الأبناء و أبناء البعولة مهما نزلوا

(أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ)أشقاء أو لأب أو لأم.

(أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ)أي: يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقا

و يحتمل أن الإضافة تقتضي الجنسية أى:-النساء المسلمات اللاتي من جنسكم

ففيه دليل لمن قال: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذمية.

*لِئَلَّا تَصِفَهُنَّ لِرِجَالِهِنَّ وَ ذَلِكَ -وَ إِنْ كَانَ مَحْذُورًا فِي جَمِيعِ النِّسَاءِ -
إِلَّا أَنَّهُ فِي نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَشَدُّ فَإِنَّهُنَّ لَا يَمْنَعُهُنَّ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ
وَ أَمَّا الْمُسْلِمَةُ فَإِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ فَتَنْزَجِرُ عَنْهُ

*البخارى 5240 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺقَالَ: قَالَ النَّبِىُّ ﷺ:-
«لَا تُبَاشِرُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فَتَنْعَتَهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا»

(من المباشرة وهي الملامسة في الثوب الواحد فتحس بنعومة بدنها وغير ذلك وقد يكون المراد مطلق الاطلاع على بدنها مما يجوز للمرأة أن تراه ولا يجوز أن يراه للرجل. (فتنعتها) فتصفها. (كأنه ينظر إليها) لدقة الوصف وكثرة الإيضاح)

*وَ قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: {أَوْ نِسَآئِهِنَّ}قَالَ: نِسَاؤُهُنَّ الْمُسْلِمَاتُ لَيْسَ الْمُشْرِكَاتُ مِنْ نِسَائِهِنَّ
وَ لَيْسَ لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ أَنْ تَنْكَشِفَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُشْرِكَةِ.

*فَأَمَّا مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:عن ضَمْرَةَ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ عَنْ أَبِيهِ:
وَ لَمَّا قَدِمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺبَيْتَ الْمَقْدِسِ كَانَ قَوَابل نِسَائِهِمُ الْيَهُودِيَّاتُ وَ النَّصْرَانِيَّاتُ
فَهَذَا -إِنْ صَحَّ -محمولٌ عَلَى حَالِ الضَّرُورَةِ أَوْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الِامْتِهَانِ ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ كَشْفُ عَوْرَةٍ وَ لَا بُدَّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ)فيجوز للمملوك إذا كان كله للأنثى أن ينظر لسيدتهما دامت مالكة له كله فإن زال الملك أو بعضه لم يجز النظر.

*وَ قَالَ الْأَكْثَرُونَ: بَلْ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ عَلَى رَقِيقِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ اسْتَدَلُّوا بِالْحَدِيثِ الَّذِى رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ:-4106عَنْ أَنَسٍﷺأَنَّ النَّبِىَّ ﷺأَتَى فَاطِمَةَ بِعَبْدٍ كَانَ قَدْ وَهَبَهُ لَهَا قَالَ:-
وَ عَلَى فَاطِمَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا ثَوْبٌ إِذَا قَنَّعَتْ بِهِ رَأْسَهَا لَمْ يَبْلُغْ رِجْلَيْهَا
وَ إِذَا غَطَّتْ بِهِ رِجْلَيْهَا لَمْ يَبْلُغْ رَأْسَهَا فَلَمَّا رَأَى النَّبِىُّ ﷺمَا تَلْقَى قَالَ:-
«إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكِ بَأْسٌ إِنَّمَا هُوَ أَبُوكِ وَ غُلَامُكِ»

(أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ)الذين يتبعونكم و يتعلقون بكم من الرجال

(غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ)لا إربة لهم فى هذه الشهوة

(مِنَ ٱلرِّجَالِ)كالمعتوه الذى لا يدرى ما هنالك و كالعنين الذى لم يبق له شهوة لا فى فرجه و لا فى قلب كَالْأُجَرَاءِ وَ الْأَتْبَاعِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَكْفَاءَ وَ هُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي عُقُولِهِمْ وَ له و خَوَث وَ لَا همَّ لَهُمْ إِلَى النِّسَاءِ وَ لَا يَشْتَهُونَهُنَّ_هُوَ الْمُغَفَّلُ الَّذِى لَا شَهْوَةَ لَهُ_الأَبْلَه_المخَنَّث الَّذِى لَا يَقُومُ ذكره فإن هؤلاء لا محذور من نظرهم.

*مسلم(2181) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:-كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺمُخَنَّثٌ
فَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ قَالَ فَدَخَلَ النَّبِىُّ ﷺيَوْمًا وَ هُوَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ وَ هُوَ يَنْعَتُ امْرَأَةً
قَالَ: إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ بِأَرْبَعٍ وَ إِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرَتْ بِثَمَانٍ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ:
«أَلَا أَرَى هَذَا يَعْرِفُ مَا هَاهُنَا لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ» قَالَتْ: فَحَجَبُوهُ

(أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ)

أى:الأطفال الذين دون التمييز فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب

و علل تعالى ذلك بأنهم لم يظهروا على عورات النساء أى: ليس لهم علم بذلك و لا وجدت فيهم الشهوة بعد و دل هذا أن المميز تستتر منه المرأة لأنه يظهر على عورات النساء.

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ)

أى: لا يضربن الأرض بأرجلهن ليصوت ما عليهن من حلى كخلاخل و غيرها فتعلم زينتها بسببه فيكون وسيلة إلى الفتنة.

و يؤخذ من هذا و نحوه:-

1-قاعدة سد الوسائل

2-و أن الأمر إذا كان مباحا و لكنه يفضى إلى محرم أو يخاف من وقوعه فإنه يمنع منه

*فالضرب بالرجل فى الأرض الأصل أنه مباح و لكن لما كان وسيلة لعلم الزينة مُنِع منه.

*وَ كَذَلِكَ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ زِينَتِهَا مَسْتُورًا فَتَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ لِتُظْهِرَ مَا هُوَ خَفِيٌّ دَخَلَ فِي هَذَا النَّهْيِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ}

وَ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّهَا تُنْهَى عَنِ التَّعَطُّرِ وَ التَّطَيُّبِ عِنْدَ خُرُوجِهَا مِنْ بَيْتِهَا لِيَشْتَمَّ الرِّجَالُ طِيبَهَا

*أحمد 19578 عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

إِذَا اسْتَعْطَرَتِ الْمَرْأَةُ فَخَرَجَتْ عَلَى الْقَوْمِ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ كَذَا وَ كَذَا

*و لما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة و وصى بالوصايا المستحسنة و كان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك أمر الله تعالى بالتوبة فقال:-

(وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ)لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح فقال:-

(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة و هى الرجوع مما يكرهه الله ظاهرا و باطنا إلى ما يحبه ظاهرا و باطنا

*و دل هـذا:-

1-أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة لأن الله خاطب المؤمنين جميعا

2-و فيه الحث على الإخلاص بالتوبة فى قوله:(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ)أى:-

لا لمقصد غير وجهه من سلامة من آفات الدنيا أو رياء و سمعة أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة(٣١)

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾

(وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ)جَمْعُ أيِّم و هم: من لا أزواج لهم من رجال و نساء ثيب و أبكار

وَ سَوَاءٌ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ ثُمَّ فَارَقَ أَوْ لَمْ يَتَزَوَّجْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا (مِنكُمْ)

*يأمر تعالى الأولياء و الأسياد بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامى فيجب على القريب و ولى اليتيم أن يزوج من يحتاج للزواج ممن تجب نفقته عليه و إذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى.

الأمر بتزويج الرجال و النساء و مكاتبة الأرقاء 32-34

(وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ)

يحتمل أن المراد بالصالحين صلاح الدين و أن الصالح من العبيد و الإماء—و هو الذى لا يكون فاجرا زانيا– مأمور سيده بإنكاحه جزاء له على صلاحه و ترغيبا له فيه و لأن الفاسد بالزنا منهى عن تزوجه

فيكون مؤيدا للمذكور فى أول السورة أن نكاح الزانى و الزانية محرم حتى يتوب

و يكون التخصيص بالصلاح فى العبيد و الإماء دون الأحرار لكثرة وجود ذلك فى العبيد عادة

و يحتمل أن المراد بالصالحين الصالحون للتزوج المحتاجون إليه من العبيد و الإماء يؤيد هذا المعنى أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه قبل حاجته إلى الزواج. و لا يبعد إرادة المعنيين كليهما و الله أعلم.

(إِن يَكُونُوا۟)الراغبين فى الزواج للعفة أى:الأزواج و المتزوجين(فُقَرَآءَ)

(يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ)فلا يمنعكم ما تتوهمون من أنه إذا تزوج افتقر بسبب كثرة العائلة و نحوه

و فيه حث على التزوج و وعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾كثير الخير عظيم الفضل

﴿عَلِيمٌ﴾بمن يستحق فضله الدينى و الدنيوى أو أحدهما ممن لا يستحق فيعطى كلا ما علمه و اقتضاه حكمه

*الترمذى 1655 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:- ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ:-

1-المُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ 2-وَ المُكَاتَبُ الَّذِى يُرِيدُ الأَدَاءَ 3-وَ النَّاكِحُ الَّذِى يُرِيدُ العَفَافَ

*البخارى5132 -عن سَهْلِ بْنُ سَعْدٍ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺجُلُوسًا فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَيْهِ فَخَفَّضَ فِيهَا النَّظَرَ وَ رَفَعَهُ فَلَمْ يُرِدْهَا فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ:-زَوِّجْنِيهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ

قَالَ: «أَعِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟» قَالَ: مَا عِنْدِى مِنْ شَيْءٍ قَالَ: «وَ لَا خَاتَمٌ مِنْ حَدِيدٍ؟»

قَالَ: وَ لَا خَاتَمٌ مِنْ حَدِيدٍ وَ لَكِنْ أَشُقُّ بُرْدَتِي هَذِهِ فَأُعْطِيهَا النِّصْفَ وَ آخُذُ النِّصْفَ

قَالَ: «لَا هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟» قَالَ: نَعَمْ قَالَ: «اذْهَبْ فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»﴿٣٢﴾

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾هذا حكم العاجز عن النكاح أمره الله أن:-

1-يستعفف أن يكف عن المحرم

2-و يفعل الأسباب التى تكفه عنه من صرف دواعى قلبه بالأفكار التى تخطر بإيقاعه فيه و يفعل أيضا

كما قال النبيﷺ:-فى البخارى1905 - عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِى مَعَ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه

فَقَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺفَقَالَ: «مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ(هى فى اللغة الجماع والتقدير من استطاع منكم الجماع لقدرته على مؤن النكاح وقيل المراد بالباءة هنا مؤن الزواج) فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ(أدعى إلى غض البصر)وَ أَحْصَنُ لِلْفَرْجِ (أدعى إلى إحصان الفرج أى حفظه من الزنا) وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ(قاطع للشهوة)»

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾يقدرون ﴿نِكَاحًا﴾إمـــا:-

1-لفقرهم أو فقر أوليائهم و أسيادهم

2-أو امتناعهم من تزويجهم و ليس لهم من قدرة على إجبارهم على ذلك

و هذا التقدير أحسن من تقدير من قدر « لا يجدون مهر نكاح »

و جعلوا المضاف إليه نائبا مناب المضاف فإن فى ذلك محذورين:-

1-الحذف فى الكلام و الأصل عدم الحذف.

2-كون المعنى قاصرا على من له حالان حالة غنى بماله و حالة عدم

فيخرج العبيد و الإماء و من إنكاحه على وليه كما ذكرنا.

﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾

وعد للمستعفف أن الله سيغنيه و ييسر له أمره و أمر له بانتظار الفرج لئلا يشق عليه ما هو فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾

أى: من ابتغى و طلب منكم الكتابة و أن يشترى نفسه من عبيد و إماء فأجيبوه إلى ما طلب و كاتبوه

(إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ)فى الطالبين للكتابة(خَيۡرٗاۖ)قدرة على التكسب و صلاحا فى دينه

لأن فى الكتابة تحصيل المصلحتين:-

1-مصلحة العتق و الحرية

2-و مصلحة العوض الذى يبذله فى فداء نفسه.

و ربما جد و اجتهد و أدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل فى رقه فلا يكون ضرر على السيد في كتابته مع حصول عظيم المنفعة للعبد

فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب كما هو الظاهر أو أمر استحباب على القول الآخر

و أمر بمعاونتهم على كتابتهم لكونهم محتاجين لذلك بسبب أنهم لا مال لهم فقال:-

(وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ)

يدخل فى ذلك أمر سيده الذى كاتبه أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها و أمر الناس بمعونتهم.

و لهذا جعل الله للمكاتبين قسطا من الزكاة و رغب في إعطائه بقوله:-

(مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ)أى: فكما أن المال مال الله و إنما الذى بأيديكم عطية من الله لكم و محض منه فأحسنوا لعباد الله كما أحسن الله إليكم.

*مفهوم الآية الكريمة:-أن العبد إذا لم يطلب الكتابة لا يؤمر سيده أن يبتدئ بكتابته

و أنه إذا لم يعلم منه خيرا بأن علم منه عكسه:-إما:-

1-أنه يعلم أنه لا كسب لهفيكون بسبب ذلك كلا على الناس ضائعا

2-و إما:-أن يخاف إذا أعتق و صار فى حرية نفسه أن يتمكن من الفساد

فهذا لا يؤمر بكتابته بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور ثم قال تعالى:-

(وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ)إماءكم(عَلَى ٱلۡبِغَآءِ)أى: أن تكون زانية

(إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا)هذا خرج مخرج الغالب

*لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال و أما إذا لم ترد تحصنا فإنها تكون بغيا يجب على سيدها منعها من ذلك

و إنما هذا نهى لما كانوا يستعملونه فى الجاهلية من كون السيد يجبر أمته على البغاء ليأخذ منها أجرة ذلك

*الصحيح المسند من أسباب النزول: مسلم (3029)عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ:

كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ يَقُولُ لِجَارِيَةٍ لَهُ:-اذْهَبِي فَابْغِينَا شَيْئًا فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ)لهن(غَفُورٌ رَحِيمٌ) [النور: 33]

*مسلم (3029) عَنْ ﷺأَنَّ جَارِيَةً لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ يُقَالُ لَهَا: مُسَيْكَةُ وَ أُخْرَى يُقَالُ لَهَا:-أُمَيْمَةُ فَكَانَ يُكْرِهُهُمَا عَلَى الزِّنَا فَشَكَتَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺفَأَنْزَلَ اللهُ:-(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ) إِلَى قَوْلِهِ:-(غَفُورٌ رَحِيمٌ) [النور: 33]

*الصحيح المسند من أسباب النزول :-الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما

قال كانت لعبد الله بن أبي جارية تزنى فى الجاهلية فلما حرم الزنا قالت: لا و الله لا أزنى أبدا فنزلت الآية

*و لهذا قال:-(لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ)

فلا يليق بكم أن تكون إماؤكم خيرا منكم و أعف عن الزنا و أنتم تفعلون بهن ذلك لأجل عرض الحياة متاع قليل يعرض ثم يزول.

فكسبكم النزاهة و النظافة و المروءة – بقطع النظر عن ثواب الآخرة و عقابها– أفضل من كسبكم العرض القليل الذى يكسبكم الرذالة و الخسة.ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة فقال:–

(وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)

فليتب إلى الله و ليقلع عما صدر منه مما يغضبه فإذا فعل ذلك غفر الله ذنوبه و رحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب و كما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

*ابن حبان- 7219 عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-

«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَ النِّسْيَانَ وَ مَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»

(قال الشيخ العدوى :وان كان في عموم اسانيده مقال لكن له شواهد يصح بها معناه)۝٣٣

*هذا تعظيم و تفخيم لهذه الآيات التى تلاها على عباده ليعرفوا قدرها و يقوموا بحقها فقال:–

(وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ)

واضحات الدلالة على كل أمر تحتاجون إليه من الأصول و الفروع بحيث لا يبقى فيها إشكال و لا شبهة

(و)نزلنا إليكم أيضا(وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ)

من أخبار الأولين الصالح منهم و الطالح و صفة أعمالهم و ما جرى لهم و جرى عليهم تعتبرونه مثالا و معتبرا لمن فعل مثل أفعالهم أن يجازى مثل ما جوزوا.

(و)أنزلنا إليكم(وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ)

من الوعد و الوعيد و الترغيب و الترهيب يتعظ بها المتقون فينكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله۝٣٤

(ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ)الحسى و المعنوى

و ذلك أنه تعالى بذاته نور و حجابه – الذى لولا لطفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه– نور

و به استنار العرش و الكرسي و الشمس و القمر و النور و به استنارت الجنة.

و كذلك النور المعنوى:– نور الله و فضل و جزاء عُمَّار المساجد 35-38

يرجع إلى الله فكتابه نور و شرعه نور و الإيمان و المعرفة في قلوب رسله و عباده المؤمنين نور.

فلولا نوره تعالى لتراكمت الظلمات و لهذا:– كل محل يفقد نوره فثم الظلمة و الحص

*البخارى 1120 عَنْ طَاوُسٍ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا

قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺإِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ:-

اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ لَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ مَنْ فِيهِنَّ

(مَثَلُ نُورِهِۦ)الذى يهدى إليه و هو نور الإيمان و القرآن فى قلوب المؤمنين

*وَ قَوْلُهُ: (مَثَلُ نُورِهِ) فِي هَذَا الضَّمِيرِ قَوْلَانِ:-

1-أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَىْ: مَثَلُ هُدَاهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ (كَمِشْكَاةٍ)

2-أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى الْمُؤْمِنِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ: تَقْدِيرُهُ:-

مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ الَّذِى فِى قَلْبِهِ كَمِشْكَاةٍ.

فَشَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَ مَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَ مَا يَتَلَقَّاهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُطَابِقِ لِمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ

كَمَا قَالَ تَعَالَى:-(أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ) [هُود: 17]

*فَشَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ فِى صَفَائِهِ فِي نَفْسِهِ بِالْقِنْدِيلِ مِنَ الزُّجَاجِ الشَّفَّافِ الْجَوْهَرِيِّ وَ مَا يَسْتَهْدِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَ الشَّرْعِ بِالزَّيْتِ الْجَيِّدِ الصَّافِى الْمُشْرِقِ الْمُعْتَدِلِ الَّذِى لَا كَدَرَ فِيهِ وَ لَا انْحِرَافَ.

(كَمِشْكَوٰةٍ)كوة(شباك صغير مسدود غير نافذ كالذى يوجد فى البيوت القديمة و غرف التراث توضع عليه السرج و غيره و هى أجمع للضوء لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك

*هُوَ مَوْضِعُ الْفَتِيلَةِ مِنَ الْقِنْدِيلِ(ليس المراد أنها سراج أو زجاجة)

(فِيهَا مِصْبَاحٌ)وَ هُوَ الذُّبالة الَّتِى تُضِىءُ.

(ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ)من صفائها و بهائها_وَ هِىَ نَظِيرُ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ.

(كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ)أى: مضىء إضاءة الدر.

(يُوقَدُ)ذلك المصباح الذي في تلك الزجاجة الدرية

(مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ)أى: يوقد من زيت الزيتون الذى ناره من أنور ما يكون

(لَّا شَرْقِيَّةٍ)فقط فلا تصيبها الشمس آخر النهار

(وَلَا غَرْبِيَّةٍ)فقط فلا تصيبها الشمس أول النهار

و إذا انتفى عنها الأمران كانت متوسطة من الأرض كزيتون الشام تصيبها الشمس أول النهار و آخره

فتحسن و تطيب و يكون أصفى لزيتها

*يَسْتَمِدُّ مِنْ زَيْتِ زَيْتُونِ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ (زَيْتُونَةٍ)بَدَلٌ أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ (لَا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ)

أَى: لَيْسَتْ فِي شَرْقِيٍّ بُقْعَتِهَا فَلَا تَصِلُ إِلَيْهَا الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ وَ لَا فِي غَرْبِيِّهَا فَيَتَقَلَّصُ عَنْهَا الْفَيْءُ قَبْلَ الْغُرُوبِ بَلْ هِيَ فِي مَكَانٍ وَسَطٍ تَفْرَعه الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ فَيَجِىءُ زَيْتُهَا مُعْتَدِلًا صَافِيًا مُشْرِقًا.

وَ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:-(زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ)قَالَ:-

شَجَرَةٌ بِالصَّحْرَاءِ لَا يُظِلُّهَا جَبَلٌ وَ لَا شَجَرٌ وَ لَا كَهْفٌ وَ لَا يُوَارِيهَا شَيْءٌ وَ هُوَ أَجْوَدُ لِزَيْتِهَا.و لهذا قال:–

(يَكَادُ زَيْتُهَا)من صفائه(يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٌۚ)فإذا مسته النار أضاء إضاءة بليغة

(نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ)نور النار و نور الزيت.

فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةٍ مِنَ النُّورِ:-

1-فَكَلَامُهُ نُورٌ 2-وَ عَمَلُهُ نُورٌ 3-وَ مَدْخَلُهُ نُورٌ 4-وَ مَخْرَجُهُ نُورٌ 5-وَ مَصِيرُهُ إِلَى النُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ.

و وجه هذا المثل الذى ضربه الله و تطبيقه على حالة المؤمن و نور الله فى قلبه:–

أن فطرته التى فُطِر عليها بمنزلة الزيت الصافى ففطرته صافية مستعدة للتعاليم الإلهية و العمل المشروع

فإذا وصل إليه العلم و الإيمان:–

اشتعل ذلك النور فى قلبه بمنزلة اشتعال النار فى فتيلة ذلك المصباح و هو صافى القلب من سوء القصد و سوء الفهم عن الله

إذا وصل إليه الإيمان:–أضاء إضاءة عظيمة لصفائه من الكدورات و ذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية

فيجتمع له:–1–نور الفطرة 2–و نور الإيمان 3–و نور العلم 4–و صفاء المعرفة نور على نوره.

و لما كان هذا من نور الله تعالى و ليس كل أحد يصلح له ذلك قال:–

(يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ)ممن يعلم زكاءه و طهارته و أنه يزكي معه و ينمو.

*الترمذى 2642 - عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺيَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى وَ مَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ

(وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ)ليعقلوا عنه و يفهموا لطفا منه بهم و إحسانا إليهم و ليتضح الحق من الباطل

فإن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة فيعلمها العباد علما واضحا

(وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ)

فعلمه محيط بجميع الأشياء فلتعلموا أن ضربه الأمثال ضرب من يعلم حقائق الأشياء و تفاصيلها

و أنها مصلحة للعباد فليكن اشتغالكم بتدبرها و تعقلها لا بالاعتراض عليها و لا بمعارضتها فإنه يعلم

و أنتم لا تعلمون ﴿٣٥﴾

و لما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد ذكرها منوها بها فقال:-

(فِي بُيُوتٍ)عظيمة فاضلة هي أحب البقاع إليه و هي المساجد.

(أَذِنَ)أمر و وصى(ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ) أى: يتعبد لله

هذان مجموع أحكام المساجد فيدخل فى رفعها:-

1-بناؤها و كنسها و تنظيفها من النجاسة و الأذى

2-و صونها من المجانين و الصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة و عن الكافر

3-و أن تصان عن اللغو فيها و رفع الأصوات بغير ذكر الله.

*البخارى 450 - عن عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ

يَقُولُ عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ ﷺ:-(بالحجارة وغيرها كما مر)إِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ(الكلام في الإنكار على ما فعلته)

وَ إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺيَقُولُ:

مَنْ بَنَى مَسْجِدًا- قَالَ بُكَيْرٌ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ:-يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ - بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الجَنَّةِ

*مسلم (569) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلًا نَشَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ:-

مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-

«لَا وَجَدْتَ إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ»(معناه لذكر الله تعالى والصلاة والعلم والمذاكرة فى الخير ونحوها)

*الترمذى 1321 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:-

إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي المَسْجِدِ فَقُولُوا:-

لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ وَ إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ فِيهِ ضَالَّةً فَقُولُوا: لَا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ

*مسلم(285) عن أَنَس بْنُ مَالِكٍ-وَ هُوَ عَمُّ إِسْحَاقَ-قَالَ:-

بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ

فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ:-مَهْ مَهْ(هى كلمة زجر قال العلماء هو اسم مبني على السكون معناه اسكت قال صاحب المطالع هي كلمة زجر قيل أصلها ما هذا ثم حذف تخفيفا قال وتقال مكررة مه مه وتقال فردة مه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-«لَا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺدَعَاهُ فَقَالَ لَهُ:-«إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَ لَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ الصَّلَاةِ وَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»

أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺقَالَ:-فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ(بالشين المعجمة وبالمهملة وهو في أكثر الأصول والروايات بالمعجمة ومعناه صبه وفرق بعض العلماء بينهما فقال هو بالمهملة الصب في سهولة وبالمعجمة التفريق في صبه)

*البخارى 477 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

صَلَاةُ الجَمِيعِ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَ صَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ خَمْسًا وَ عِشْرِينَ دَرَجَةً

(وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ)يدخل فى ذلك:-

1-الصلاة كلها فرضها و نفلها 2-و قراءة القرآن 3-و التسبيح و التهليل و غيره من أنواع الذكر

4-و تعلم العلم و تعليمه و المذاكرة فيها 5-و الاعتكاف

6-و غير ذلك من العبادات التى تفعل فى المساجد

و لهذا كانت عمارة المساجد على قسمين:-

1-عمارة بنيان و صيانة لها 2-و عمارة بذكر اسم الله من الصلاة و غيرها و هذا أشرف القسمين

و لهذا شرعت الصلوات الخمس و الجمعة فى المساجد:-

وجوبا عند أكثر العلماءأو استحبابا عند آخرين.(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) [الْجِنِّ: 18]

ثم مدح تعالى عمارها بالعبادة فقال:-(يُسَبِّحُ لَهُۥ)إخلاصا(بِٱلۡغُدُوِّ)أول النهار(وَٱلۡأٓصَالِ)آخره ﴿٣٦﴾

شرف الذاكرين

آيةٌ في كتاب الله أستَحْضِرُهَا كلما دخلتُ مجلسًا من مجالس ذكر الله، وهي قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾ [٢]، فأستشعِرُ أن مجرد إذن الله لي – ولمن حضر هذا المجلس من فوق سبع سماوات – بذكره؛ هو شرفٌ عظيم لنا، وما أعظم ذكر الله! نسأله سبحانه أن يجعلنا ممن يذكره آناء الليل وأطراف النهار. النور: ٣٦

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾

*يسبح فيها الله(رِجَالٌ)خص هذين الوقتين لشرفهما و لتيسر السير فيهما إلى الله و سهولته.

و يدخل فى ذلك التسبيح فى الصلاة و غيرها

و لهذا شرعت أذكار الصباح و المساء و أورادهما عند الصباح و المساء.

و أى رجال ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا ذات لذات و لا تجارة و مكاسب مشغلة عنه

(لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ)و هذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض فيكون قوله:-

(وَلَا بَيْعٌ)من باب عطف الخاص على العام لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره فهؤلاء الرجال و إن اتجروا و باعوا و اشتروا فإن ذلك لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك بأن يقدموها و يؤثروها

(عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ)

بل جعلوا طاعة الله و عبادته غاية مرادهم و نهاية مقصدهم فما حال بينهم و بينها رفضوه.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) [الأَحْزَابِ: 23]

و لما كان ترك الدنيا شديدا على أكثر النفوس و حب المكاسب بأنواع التجارات محبوبا لها و يشق عليها تركه في الغالب و تتكلف من تقديم حق الله على ذلك ذكر ما يدعوها إلى ذلك - ترغيبا وترهيبا- فقال:-

(يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ)من شدة هوله و إزعاجه للقلوب و الأبدان

فلذلك خافوا ذلك اليوم فسهل عليهم العمل و ترك ما يشغل عنه

*كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ) [غَافِرِ: 18]

وَ قَالَ(إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)[إبْرَاهِيمَ: 42] وَقَالَ(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا 8 إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا 9 إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا 10 فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا 11 وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا)[الْإِنْسَانِ] (٣٧)

(لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟)أي:-أعمالهم الحسنة الصالحة لأنها أحسن ما عملوا لأنهم يعملون المباحات و غيرها فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن كقوله تعالى:(لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ)زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم كَمَا قَالَ تَعَالَى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) [النِّسَاءِ: 40] وَ قَالَ تَعَالَى: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) [الْأَنْعَامِ: 160]
وَ قَالَ(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)[الْبَقَرَةِ: 245] و قال(وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) [البقرة: 261]

(وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله بل و لا تبلغه أمنيته و يعطيه من الأجر بلا عد و لا كيل و هذا كناية عن كثرته جدا(٣٨)

ضرب مثل لأعمال الكافرين 39-40

*هذان مثلان ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها و ذهابها سدى و تحسر عامليها منها
*كَمَا ضَرَبَ لِلْمُنَافِقِينَ فِي أَوَّلِ "الْبَقَرَةِ" مِثْلَيْنِ:-نَارِيًّا وَ مَائِيًا
وَ كَمَا ضَرَبَ لِمَا يَقِرُّ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْهُدَى وَ الْعِلْمِ فِي سُورَةِ "الرَّعْدِ":-مَثَلَيْنِ مَائِيًّا وَ نَارِيًّا
وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى كُلٍّ مِنْهَا فِي مَوْضِعِهِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَ الْمِنَّةُ.
*فَأَمَّا الْأَوَّلُ مِنْ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ:-فَهُوَ لِلْكُفَّارِ الدُّعَاةِ إِلَى كُفْرِهِمُ الَّذِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَ الِاعْتِقَادَاتِ وَ لَيْسُوا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى شَيْءٍ فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَالسَّرَابِ الَّذِي يُرَى فِي الْقِيعَانِ مِنَ الْأَرْضِ عَنْ بُعْدٍ كَأَنَّهُ بحر طام.

(وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟)بربهم و كذبوا رسله (أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ)أي: بقاع لا شجر فيه و لا نبت.
وَ الْقِيعَةُ: وَ هِيَ: الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَةُ الْمُتَّسِعَةُ الْمُنْبَسِطَةُ وَ فِيهِ يَكُونُ السَّرَابُ
وَ إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بَعْدَ نِصْفِ النَّهَارِ.وَ أَمَّا الْآلُ فَإِنَّمَا يَكُونُ أَوَّلَ النَّهَارِ يُرَى كَأَنَّهُ مَاءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ

(يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً)فَإِذَا رَأَى السَّرَابَ مَنْ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمَاءِ حَسِبَهُ مَاءً فَقَصَدَهُ لِيَشْرَبَ مِنْهُ

*شديد العطش الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره بسبب ما معه من العطش و هذا حسبان باطل فيقصده ليزيل ظمأه

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا)
فَكَذَلِكَ الْكَافِرِ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ عَمِلَ عَمَلًا وَ أَنَّهُ قَدْ حَصَّلَ شَيْئًا فَإِذَا وَافَى اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ حَاسَبَهُ عَلَيْهَا وَ نُوقِشَ عَلَى أَفْعَالِهِ لَمْ يَجِدْ لَهُ شَيْئًا بِالْكُلِّيَّةِ قَدْ قُبل
*إِمَّا لِعَدَمِ الْإِخْلَاصِ
*وَ إِمَّا لِعَدَمِ سُلُوكِ الشَّرْعِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:-(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) [الْفُرْقَانِ: 23]
*البخارى7439 - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:-قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَ القَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟»قُلْنَا: لاَ قَالَ:-
«فَإِنَّكُمْ لاَ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا» ثُمَّ قَالَ:يُنَادِى مُنَادٍ:-
لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ وَ أَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ
وَ أَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ وَ غُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ
ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ
فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَ لاَ وَلَدٌ فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا:-
نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا فَيُقَالُ: اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ
*هَذَا الْمِثَالُ مِثَالٌ لِذَوِى الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ.

*فندم ندما شديدا و ازداد ما به من الظمأ بسبب انقطاع رجائه كذلك أعمال الكفار بمنزلة السراب

تُرَى و يظنها الجاهل الذى لا يدرى الأمور أعمالا نافعة فيغره صورتها و يخلبه خيالها و يحسبها هو أيضا أعمالا

نافعة لهواه و هو أيضا محتاج إليها بل مضطر إليها كاحتياج الظمآن للماء

حتى إذ قدم على أعماله يوم الجزاء وجدها ضائعة و لم يجدها شيئا و الحال إنه لم يذهب لا له و لا عليه

بل (وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ)لم يخف عليه من عمله نقير و لا قطمير و لن يعدم منه قليلا و لا كثيرا

(وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ)فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد فإنه لا بد من إتيانه و مَثَّلَها اللهُ بالسراب الذي بقيعة

أي: لا شجر فيه و لا نبات و هذا مثال لقلوبهم لا خير فيها و لا بر فتزكو فيها الأعمال و ذلك للسبب المانع

و هو الكفر.

*فَأَمَّا أَصْحَابُ الْجَهْلِ الْبَسِيطِ وَ هُمُ الطَّماطِمِ الْأَغْشَامُ الْمُقَلِّدُونَ لِأَئِمَّةِ الْكُفْرِ الصُّمِّ الْبُكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ

٣٩

*فهو المثل الثانى لبطلان أعمال الكفار(أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ)بعيد قعره طويل مداه_الْعَمِيقُ.

(يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ)ظلمة البحر اللجى

ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة ثم فوق ذلك ظلمة السحب المدلهمة ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم

فاشتدت الظلمة جدا بحيث أن الكائن في تلك الحال

*وَ هِىَ كَقَوْلِه:(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[الْبَقَرَة: 7]
وَ كَقَوْلِه:(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) [الْجَاثِيَة: 23]
*أَيْ: لَمْ يُقَارِبْ رُؤْيَتَهَا مِنْ شِدَّةِ الظَّلَامِ فَهَذَا مِثْلُ قَلْبِ الْكَافِرِ الْجَاهِلِ الْبَسِيطِ الْمُقَلِّدِ الَّذِي:-
لَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ وَ لَا هُوَ يَعْرِفُ حَالَ مَنْ يَقُودُهُ بَلْ كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ لِلْجَاهِلِ: أَيْنَ تَذْهَبُ؟
قَالَ: مَعَهُمْ. قِيلَ: فَإِلَى أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ قَالَ: لَا أَدْرِى.

(إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ)مع قربها إليه فكيف بغيرها كذلك الكفار تراكمت على قلوبهم الظلمات:-

1-ظلمة الطبيعة التى لا خير فيها 2-و فوقها ظلمة الكفر 3-و فوق ذلك ظلمة الجهل

4–و فوق ذلك ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر

فبقوا فى الظلمة متحيرين و في غمرتهم يعمهون و عن الصراط المستقيم مدبرين و فى طرق الغى و الضلال يترددون و هذا لأن الله تعالى خذلهم فلم يعطهم من نوره

*وَ قَالَ أُبيّ بْنُ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ: (ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةٍ مِنَ الظُّلَمِ:-

1-كَلَامُهُ ظُلْمَةٌ 2-وَ عَمَلُهُ ظُلْمَةٌ 3-وَ مَدْخَلُهُ ظُلْمَةٌ4-وَ مَخْرَجُهُ ظُلْمَةٌ

5-وَ مَصِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الظُّلُمَاتِ إِلَى النَّارِ.

(وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ)لأن نفسه ظالمة جاهلة

فليس فيها من الخير و النور إلا ما أعطاها مولاها و منحها ربها.

*يحتمل أن هذين المثالين لأعمال جميع الكفار كل منهما منطبق عليها و عددهما لتعدد الأوصاف

*و يحتمل أن كل مثال لطائفة و فرقة.فالأول للمتبوعين و الثانى للتابعين والله أعلم.

*كَمَا قَالَ تَعَالَى: (مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ) [الأعراف: 186] ﴿٤٠﴾

مظاهر قدرة الله 41-46

*نبه تعالى عباده على عظمته و كمال سلطانه و افتقار جميع المخلوقات له في ربوبيتها و عبادتها فقال:–

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)من حيوان و جماد

*كَمَا قَالَ تَعَالَى:(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [الإِسْرَاء: 44]

(وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ)أجنحتها في جو السماء تسبح ربها(كُلٌّ)من هذه المخلوقات

(قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ)أى: كل له صلاة و عبادة بحسب حاله اللائقة به

و قد ألهمه الله تلك الصلاة و التسبيح:–

1–إما بواسطة الرسل كالجن و الإنس و الملائكة

2–و إما بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات غير ذلك و هذا الاحتمال أرجح بدليل قوله:–

(وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ)علم جميع أفعالها فلم يخف عليه منها شيء و سيجازيهم بذلك فيكون على هذا قد جمع بين علمه بأعمالها و ذلك بتعليمه و بين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء.

*و يحتمل أن الضمير في قوله:(قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) يعود إلى الله و أن الله تعالى قد علم عباداتهم و إن لم تعلموا – أيها العباد– منها إلا ما أطلعكم الله عليه.و هذه الآية كقوله:(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)﴿٤١﴾

فلما بين عبوديتهم و افتقارهم إليه –من جهة العبادة و التوحيد– بين افتقارهم من جهة الملك و التربية و التدبير فقال:–

(وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ)خالقهما و رازقهما و المتصرف فيهما

في حكمه الشرعى و القدرى في هذه الدار و فى حكمه الجزائى بدار القرار بدليل قوله:–

(وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ)أى: مرجع الخلق و مآلهم ليجازيهم بأعمالهم﴿٤٢﴾

(أَلَمْ تَرَ)تشاهد ببصرك عظيم قدرة الله و كيف(يُزْجِى)يسوق(سَحَابًا)قطعا متفرقة(ثُمَّ يُؤَلِّفُ)يُجمع

(بَيْنَهُۥ)بين تلك القطع (ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ)فيجعله سحابا(رُكَامًا)متراكما مثل الجبال.

(فَتَرَى ٱلْوَدْقَ)أى: الوابل و المطر يخرج من خلال السحاب نقطا متفرقة ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر

فتمتلئ بذلك الغدران و تتدفق الخلجان و تسيل الأودية و تنبت الأرض من كل زوج كريم

و تارة ينزل الله من ذلك السحاب بردا يتلف ما يصيبه.

(يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ)السحاب(مِن جِبَالٍ)أى:-يشبه الجبال فى عظمته(فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ)

(فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ)بحسب ما اقتضاه حكمه القدرى و حكمته التى يحمد عليها

(فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ)رَحْمَةً لَهُمْ

(وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ)أَيْ: يُؤَخِّرُ عَنْهُمُ الْغَيْثَ.وَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ:-(فَيُصِيبُ بِهِ)

أَيْ: بِالْبَرَدِ نِقْمَةً عَلَى مَنْ يَشَاءُ لِمَا فِيهِ مِنْ نَثْرِ ثِمَارِهِمْ وَ إِتْلَافِ زُرُوعِهِمْ وَ أَشْجَارِهِمْ (وَ يَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ)

أَيْ: رَحْمَةً بِهِمْ.

(يَكَادُ سَنَا)ضوء(بَرْقِهِۦ)أى:–برق ذلك السحاب من شدته(يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ)

أليس الذى أنشأها و ساقها لعباده المفتقرين و أنزلها على وجه يحصل به النفع و ينتفى به الضرر كامل القدرة

نافذ المشيئة واسع الرحمة؟﴿٤٣﴾

مع الشيخ ابن جبرين رحمه الله

موقف مؤثر يحدث به أحد طلبة الشيخ عبدالله بن جبرين رحمه الله فيقول:

كنا تحديدا في عام ١٤٢٠هـ؛ في درس بعد المغرب لفضيلة العلامة الجبرين رحمه الله على كتاب (شرح الزركشي)، وصادف أن كانت السماء عصر ذلك اليوم تُمطر مطرًا شديدًا لم تعهده العاصمةُ الرياض، واستمرّ المطر حتى موعد بدء الدرس، وقد أحسن إمام المسجد حين قرأ في الصلاة قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ النور٤٣

وبعد الصلاة جلس الشيخ لدرسه، وكعادته: علّق قبل أن يبدأ على نزول المطر، وبيّن أنه رحمةٌ من الله وفضلٌ، واستشهد بحديث الطائفِ: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فمن قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بي كافر بالكوكب)[٢]، ثم تلا الشيخُ الآيةَ التي قرأها الإمام، وظل يشرحها كلمةً كلمةً وأورد الكثير من القصص والشواهد حتى أذَّنَ المؤذن للعشاء.

فلما بلغ تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ [٣]؛ وافَقَ شَرْحَهُ لها إرعادَ السماءِ رعدةً سُمع لها دويٌّ قويٌّ داخل المسجد، فأسهب في شرحها، وفتح الله عليه بفتح عظيم حتى أتى بأقوال السلف وأشعار العرب، وعلته خشية، وخنقته عبرة، وهو ما لم يكن من عادته؛ إذ كان غالبا ما يتمالك نفسه وتأثر بعض طلبة الشيخ كثيرًا، وكان ذلك كله مع خرير ماء يُسمع سقوطه من على نوافذ المسجد، وعشنا يومها أجواءً رُوْحَانِيَّةً رائعةً عرّفتنا حقا قيمة الماء، وإبداع صنع الله في السحاب، بما تعجز عن إيصاله آلاف الأفلام الوثائقية الحديثة، التي تصف نزول المطر بالصوت والصورة.

الاعجاز فى (أو كظلمات فى بحر لجى)

تشير هذه الآية الكريمة إلي الظلمة التامة فوق قيعان البحار العميقة و المحيطات مؤكدة أنها ظلمة مركبة يلعب كل من السحب والأمواج السطحية والأمواج الداخلية دورا أساسيا فى إحداثها و هى حقيقة لم يدركها الانسان إلا في مطلع القرن العشرين.

و لما كانت الشمس هى مصدر الحرارة والضوء ومختلف صور الطاقة الأخرى(فيما عدا الطاقة النووية) علي سطح الأرض و على أسطح غيرها من أجرام المجموعة الشمسية كان لزاما علينا الرجوع إلى المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس للتعرف علي الحواجز التى يمكن أن تعترض أشعة الشمس فى طريق وصولها إلي الأرض ومن أهمها الغلاف الغازي للأرض خاصة جزءه السفلى(نطاق المتغيرات المناخية أو نطاق الرجع) ومابه من سحب.

<u>الظلمة الأولى تسببها السحب:</u>

تتكون الأشعة الصادرة من الشمس من كل الموجات الكهرومغناطيسية ابتداء من الأشعة الراديوية إلي الأشعة السينية إلا أن الغالب عليها هو الضوء المرئي وكل من الاشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية بالاضافة إلى بعض الجسيمات الأولية المتسارعة مثل الإلكترونات

و أغلب الأشعة فوق البنفسجية يردها إلي الخارج نطاق الأوزون.

وعند وصول بقية أشعة الشمس إلي الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض فإن السحب تعكس و تشتت نحو30% منها.

و تمتص السحب وما بها من بخار الماء وجزيئات الهواء و هباءات الغبار و غيرها من نوى التكثيف الأخري حوالي19% من تلك الأشعة الشمسية المارة من خلالها تحجب السحب بالانعكاس والتشتيت والامتصاص حوالي49% من أشعة الشمس فتحدث قدرا من الظلمة النسبية.

الأمواج السطحية في البحار و المحيطات تسبب الظلمة الثانية عند وصول ما تبقى من أشعة الشمس إلى أسطح البحار والمحيطات فإن حوالى35% من الأشعة تحت الحمراء فيها تستهلك فى تبخير الماء و تكوين السحب و فى عمليات التمثيل الضوئى التى تقوم بها النباتات البحرية.

أما ما يصل إلي سطح البحار والمحيطات مما تبقي من الأشعة المرئية (أو الضوء الأبيض).

فان الأمواج السطحية للبحار تعكس5% أخرى منها فتحدث قدرا أخر من الظلمة النسبية في البحار والمحيطات توهن ضوء الشمس المرئى بمروره فى ماء البحار و المحيطات

الجزء المرئى من أشعة الشمس الذي ينفذ إلي كتل الماء فى البحار والمحيطات يتعرض لعمليات كثيرة من الانكسار و التحلل إلى الأطياف المختلفة والامتصاص بواسطة كل من جزيئات الماء وجزيئات الأملاح المذابة فيه وبواسطة المواد الصلبة العالقة به وبما يحيا فيه من مختلف صور الأحياء وبما تفرزه تلك الأحياء من مواد عضوية ولذلك يضعف الضوء المار في الماء بالتدريج مع العمق.

و <u>الطيف الأحمر</u> هو أول مايمتص من أطياف الضوء الأبيض ويتم امتصاصه بالكامل على عمق لا يكاد يتجاوز عشرة أمتار ويليه فى الامتصاص الطيف البرتقالى

ثم <u>الطيف الأصفر</u> والذى يتم امتصاصه بالكامل على عمق لا يتجاوز الخمسين مترا

و يلى ذلك <u>الطيف الأخضر</u> والذي يتم امتصاصه بالكامل علي عمق مائة متر فى المتوسط

و يستمر <u>الطيف الأزرق</u> بعد ذلك ليتم امتصاصه على عمق يزيد قليلا على المائتى متر

و لذلك يبدو ماء البحار و المحيطات باللون الأزرق لتشتت هذا الطيف من أطياف الضوء الأبيض في المائتي متر العليا من تلك الكتل المائية.

وبذلك فإن معظم موجات الضوء المرئى تمتص على عمق مائة متر تقريبا من مستوي سطح الماء في البحار والمحيطات

ويستمر1% منها إلي عمق150 مترا و0,01% إلى عمق200 متر فى الماء الصافي الخالى من العوالق.

وعلي الرغم من السرعة الفائقة للضوء(حوالى300,000 كيلومتر فى الثانية فى الفراغ و حوالى225,000 كيلومتر فى الثانية فى الأوساط المائية)،

فإنه لا يستطيع أن يستمر في ماء البحار والمحيطات لعمق يزيد علي الألف متر فبعد مائتي متر من أسطح تلك الأوساط المائية يبدأ الإظلام شبه الكامل حيث لا ينفذ بعد هذا العمق سوي أقل من0,01% من ضوء الشمس ويظل هذا القدر الضئيل من الضوء المرئي يتعرض للانكسار والتشتت والامتصاص حتي يتلاشي تماما علي عمق لا يكاد يصل إلي كيلومتر واحد تحت مستوي سطح البحر. حيث لا يبقي من أشعة الشمس

الساقطة علي ذلك السطح سوي واحد من عشرة تريليون جزء منها ولما كان متوسط أعماق المحيطات يقدر بنحو3795 مترا

وأن أقصاها عمقا يتجاوز الأحد عشر كيلومترا بقليل(11,034 متر)

و بين هذين الحدين تتراوح أعماق البحار والمحيطات بين أربعة وخمسة كيلومترات في المتوسط وبين ثمانية وعشرة كيلومترات في أكثرها عمقا.

فإن معني ذلك أن أعماق تلك المحيطات تغرق في ظلام دامس.

الأمواج الداخلية هي سبب الظلمة الثالثة فوق قيعان البحار العميقة

بالاضافة إلي تحلل الضوء الأبيض عند مروره فى ماء البحار والمحيطات فإن السبب الرئيسي فى إحداث الإظلام التام فوق قيعان البحار اللجية

(أي الغزيرة الماء لعمقها حتي لايكاد يدرك لها قاع والمتلاطمة الأمواج لقول العرب(إلتج البحر) أى: تلاطمت أمواجه) هى الأمواج الداخلية في تلك البحار العميقة وغير المتجانسة.

وتتكون هذه الأمواج الداخلية بين كتل الماء ذات الكثافات المختلفة وتختلف كثافة الماء في البحار العميقة والمحيطات باختلاف كل من درجة حرارته ونسبة الأملاح المذابة فيه

وتتمايز كتل الماء في تلك المسطحات المائية الكبيرة أفقيا بتمايز مناطقها المناخية ورأسيا بتمايز كثافتها.

وتتحرك التيارات المائية أفقيا بين مساحات شاسعة من خطوط العرض فتكتسب صفات طبيعية جديدة من درجات الحرارة والملوحة بسبب تغير معدلات التسخين أو التبريد ومعدلات البخر أو سقوط الأمطار مما يضطرها إلي التحرك رأسيا كذلك.

وتمايز الماء في البحار العميقة والمحيطات إلي كتل سطحية وكتل متوسطة وكتل شبه قطبية وكتل حول قطبية ولايتمايز الماء إلي تلك الكتل إلا في البحار شديدة العمق

ومن هنا فإن الأمواج الداخلية لاتتكون إلا فى مثل تلك البحار العميقة ومن هنا أيضا كان التحديد القرآني بالوصف بحر لجى إعجازا غير مسبوق.

وتتكون الأمواج الداخلية عند الحدود الفاصلة بين كل كتلتين مائيتين مختلفتين في الكثافة وهي أمواج ذات أطوال وارتفاعات تفوق أطوال وارتفاعات الأمواج السطحية بمعدلات كبيرة حيث تتراوح أطوالها بين عشرات ومئات الكيلومترات وتصل سعتها(أى ارتفاع الموجة) إلى مائتى متر

وتتحرك بسرعات تتراوح بين00,51 سنتيمتر فى الثانية لمدد تتراوح بين أربع دقائق وخمس وعشرين ساعة.

وعلي الرغم من ذلك فهي أمواج لايمكن رؤيتها بطريقة مباشرة

وإن أمكن إدراك حركتها بأجهزة ميكانيكيةوذلك بواسطة عدد من القياسات للاضطرابات التى تحدثها تلك الأمواج الداخلية وهذا ايضا مما يجعل الاشارة القرآنية إليها إعجازا لاينكره إلا جاحد.

كذلك يبدأ تكون الأمواج الداخلية علي عمق40 مترا تقريبا من مستوى سطح الماء في المحيطات حيث تبدأ صفات الماء فجأة في التغير من حيث كثافتها ودرجة حرارتها

وقد تتكرر على أعماق أخري كلما تكرر التباين بين كتل الماء في الكثافة وعجز الانسان في زمن الوحي ولقرون متطاولة من بعده عن الغوص إلي هذا العمق الذي يحتاج إلي أجهزة مساعدة خاصة مما يقطع باعجاز علمى فى هذه الآية الكريمة بإشارتها إلى تلك الأمواج الداخلية

و هى أمواج لم يدركها الإنسان إلا في مطلع القرن العشرين(سنة1904 م).

ومن فوق هذه الأمواج الداخلية تأتى الأمواج السطحية ومايصاحبها من العواصف البحرية والتي يحركها كل من الرياح والجاذبية والهزات الأرضية ودوران الأرض حول محورها من الغرب إلي الشرق وحركات المد والجزر الناتجة عن جاذبية كل من الشمس والقمر وغير ذلك من العوامل المعروفة وغير المعروفة
وهذه الأمواج السطحية هي أحد العوائق أمام مرور كل أشعة الشمس الساقطة علي أسطح البحار والمحيطات في مائها والوصول إلى أعماقها ولذلك فهي أحد أسباب ظلمة تلك الأعماق بالإضافة إلي تحلل تلك الأشعة إلي أطيافها وامتصاصها بالتدريج في الماء.
ومن فوق هذه الأمواج السطحية تأتي السحب التى تمتص وتشتت وترد إلي صفحة السماء حوالي49% من مجموع أشعة الشمس الواصلة إلي نطاق التغييرات المناخية فتحدث قدرا من الظلمة النسبية التي تحتاجها الحياة علي سطح الأرض.
فسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:-(أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)[النور:40]
والآية الكريمة جاءت في مقام التشبيه و لكنها على الرغم من ذلك جاءت فى صياغة علمية دقيقة غاية الدقة ومحكمة غاية الإحكام شأن كل الآيات القرآنية
ونزلت هذه الآية الكريمة في زمن لم يكن لأحد من الناس إلمام بتلك الحقائق العلمية ولابطرف منها وظلت أجيال الناس جاهلة بها لقرون متطاولة بعد زمن الوحي حتي تم الإلمام بشيء منها في مطلع القرن العشرين.
ومع افتراض أن أحدا من الناس قد أدرك في القديم دور السحب في إحداث شيء من الظلمة علي الأرض ودور الأمواج السطحية في إحداث شيء من ذلك علي قيعان البحار والمحيطات(وهو افتراض مستبعد جد) فان من أوضح جوانب الإعجاز العلمي(أى: السبق العلمى) فى هذه الآية الكريمة هو تلك الإشارة المبهرة إلي الأمواج الداخلية(InternalWaves)
وهي أمواج لايمكن رؤيتها بالعين المجردة أبدا ولكن يمكن إدراكها بعدد من القياسات غير المباشرة.
ومن جوانب السبق العلمي في هذه الآية الكريمة أيضا الإشارة إلي الحقيقة المعنوية الكبري التي تصفها الآية بقول الحق(تبارك وتعالي):..
ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.
ثم تفاجئنا البحوث العلمية أخيرا بواقع مادي ملموس لتلك الحقيقة بالإضافة إلي مضمونها المعنوي الجميل فقد كان العلماء إلي عهد قريب جدا لايتصورون إمكانية وجود حياة في أغوار المحيطات العميقة أولا للظلمة التامة فيها و ثانيا للبرودة الشديدة لمائها و ثالثا للضغوط الهائلة الواقعة عليها (وزن عمود الماء بسمك يصل إلي أربعة كيلومترات في المتوسط)
و رابعا للملوحة المرتفعة أحيانا لذلك الماء ولكن بعد تطوير غواصات خاصة لدراسة تلك الأعماق فوجىء دارسو الأحياء البحرية بوجود بلايين الكائنات الحية التي تنتشر فى تلك الظلمة الحالكة وقد زودها خالقها بوسائل إنارة ذاتية فى صميم بنائها الجسدى تعرف باسم الإنارة الحيوية(Bioluminescence)
و تنتج هذه الإنارة العجيبة عن طريق تفاعل فريد من نوعه بين جزئ لمركب كيميائى عضوى اسمه ليوسيفيرين(Luciferin)وجزئ الأوكسجين في وجود إنزيم خاص اسمه ليوسيفيريز(Luciferase)
و يمثل هذا التفاعل الفريد عملية الأكسدة الوحيدة المعروفة لنا فى أجساد الكائنات الحية التى لا يصاحبها إنتاج قدر مدرك من الحرارة

ومن العجيب أن كل نوع من أنواع هذه الأحياء الخاصة والتى تحيا فى بيئات من الظلمة التامة له أنواع خاصة من المركبات الكيميائية المنتجة للضوء وله إنزيماته الخاصة أيضا والسؤال الذي يفرض نفسه:
من غير الله الخالق يمكنه ان يعطي كل نوع من أنواع تلك الأحياء البحرية العميقة هذا النور الذاتى؟
وهنا يتضح البعد المادى الملموس لهذا النص القرآني المعجز كما يتضح بعده المعنوى الرفيع:-
ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور فسبحان الذى أنزل القرآن الكريم أنزله بعلمه علي خاتم أنبيائه ورسله وحفظه لنا بلغة وحيه(اللغة العربية)حفظا كاملا بكل حرف وكل كلمة وكل آية وكل سورة فجاء ذلك كله معجزا غاية الاعجاز
فالحمد لله رب العالمين علي نعمة القرآن و صلى الله وسلم وبارك على هذا النبى الخاتم الذى تلقاه و على آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين.

الاعجاز العلمي فى(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) للشيخ عبد المجيد الزنداني
يقول الشيخ عبد المجيد الزندانى :
درسنا السحاب لمدة سنتين تقريباً فى جامعة الملك عبد العزيز مع قسم الأرصاد فى جدة فعند الدراسة ظهرت لنا أن هناك أنواع متعددة من السحب لكن الأنواع الممطرة ثلاثة أنواع فقط فلما راجعت القرآن وجدت أن القرآن ذكر الأنواع الثلاثة بالضبط ووصف كل نوع منها وصفاً دقيقاً هذا الوصف..
هذا الوصف لكل سحاب يختلف تماماً عن وصف السحاب الآخر
فالسحب الممطرة ثلاث أنواع منها النوع الركامى يقول الله -جل وعلا- فى السحاب الركامى:
(ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه)
يعنى الآن يصنف لنا القرآن طريقة تكوين السحاب الركامى ووجد أن السحاب الركامى يتكون هكذا يزجي أي يسوق برفق يتكون (قزع)ثم يساق هذا (القزع) إلى خط تجمع السحاب فيساق برفق إلى خط هذا التجمع
(ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه)-فى هذا الخط- (ثم يجعله ركاماً) يقوم فوقه فوق بعض
(ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله)يعنى قطرات المطر تخرج متى؟ إذا حدث الركام
(فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار)
وصف كامل بالضبط لطريقة تكوين السحاب للظواهر المصاحبة لتكوينه للنتائج المترتبة عليه قلنا يبدأ بالسوق ثم بتأليف ثم بالتراكم فينزل المطر تغير حرف العطف انظر الدقة على مستوى الحرف لأن الفترة من فترة السوق إلى التأليف تأخذ زمن ومن التأليف إلى نهاية الركم تأخذ زمن لكن بعد أن ينتهي الركم إلى نزول المطر بدون وجود زمن ولذلك كان الفارق في هذا الحرف (فاء) عبر بالفاء الذى يدل على التعقيب والترتيب بسرعة ولذلك قال
(ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال)
يعنى يقول لك أنظر إلى السماء (وينزل من السماء. من جبال)
ما الجبال (فيها من برد) إذن هى سحاب(وينزل من جبال فيها من برد)

لا يتكون البرد إلا في السحاب الركامي الذى تختلف درجة حرارة قاعدته عن قمته وبسبب هذا الشكل الجبلي للسحاب يتكون البرد الشكل الطبقي لا يتكون فيه برد ولذلك قال:

(وينزل من السماء من جبال) يجب أن يكون السحاب على شكل جبل.

(وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء)الضمير يرجع إلى البرد

(وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به)-أى بالبرد- (فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء).

يقول علماء الأرصاد يتكون البرد وينزل إلى قاعدة السحاب وفجأة يأتى تيار هوائى يصرفه ويعيده إلى وسط السحاب.

أما كيف نفهم قوله تعالى :(فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء)

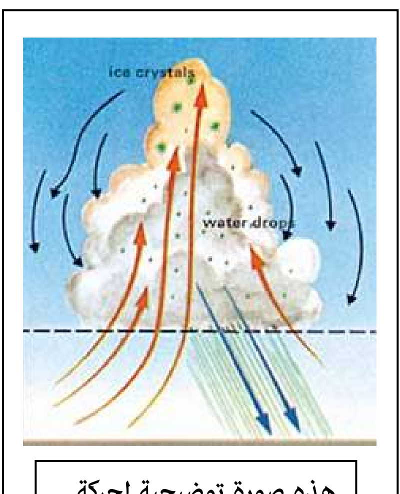
يعني كان متجهاً إلى قوم...فقال له ارجع اطلع فوق وتتبع علماء الأرصاد ذلك... فوجدها دورة يدورها.. تدورها البردة تكون غلاف فلما تنزل البردة إلى الأرض نحسب كم غلاف نعرف كم دورة دارت هذه البردة في جسم السحابة

(فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار)سنا برقه يعني لمعان برقه و الكلام كله عن البرد (فيصيب به) أى بالبرد- من يشاء و يصرفه- أى يصرف البرد- (ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه) لمعان برقه أي برق البرد في عام 1985م قُدِّم

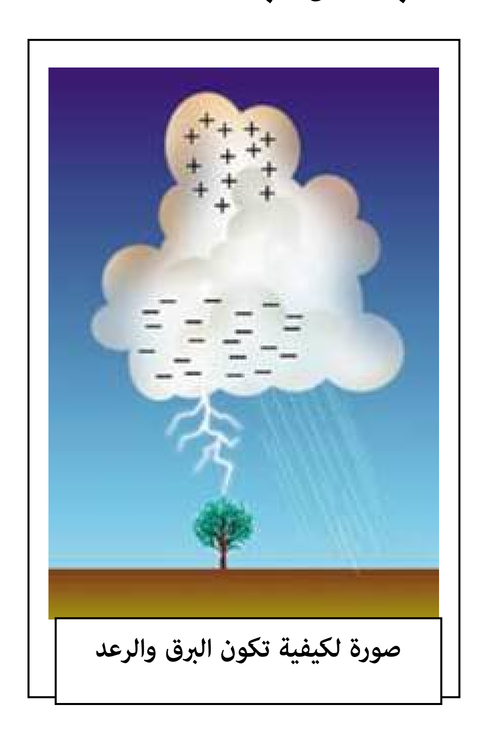
ولأول مرة في مؤتمر دولي أن البرد هو السبب الحقيقي لتكوين البرق فعندما يتحول البرد من سائل إلى جسم صلب تتكون الشحنات الكهربائي الموجبة والسالبة عندما تدور حبة البرد توزع الشحنات الموجبة والشحنات السالبة عندما يستمر الدوران تقوم بعملية التوصيل فالبرد.. فالبرق من البرد.



هذه الصورة التقطت عن طريق الأقمار الصناعية تبين سوق الرياح للسحاب كأن يداً خفية تقوم بتوجيه حركة السحاب



هذه صورة توضيحية لحركة البرد داخل السحابة الركامية



صورة لكيفية تكون البرق والرعد



صورة للسحاب التي لها شكل الجبال التي يتكون منها البرد



صورة للسحاب على شكل قزع

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾

(يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ)

من حر إلى برد و من برد إلى حر من ليل إلى نهار و من نهار إلى ليل و يديل الأيام بين عباده

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي)لذوى

(ٱلۡأَبۡصَٰرِ)البصائر و العقول النافذة للأمور المطلوبة منها كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية.

فالبصير ينظر إلى هذه المخلوقات:—نظر اعتبار و تفكر و تدبر لما أريد بها و منها

و المعرض الجاهل:—نظره إليها نظر غفلة بمنزلة نظر البهائم﴿٤٤﴾

(وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ)ينبه عباده على ما يشاهدونه أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض (مِّن مَّآءٖ)

أي: مادتها كلها الماء كما قال تعالى:(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ)

فالحيوانات التى تتوالد مادتها ماء النطفة حين يلقح الذكر الأنثى.

و الحيوانات التى تتولد من الأرض لا تتولد إلا من الرطوبات المائية كالحشرات لا يوجد منها شيء يتولد من غير ماء أبدا فالمادة واحدة و لكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة

(فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ)كالحية و نحوها

(وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ)كالآدميين و كثير من الطيور

(وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ)كبهيمة الأنعام و نحوها.

فاختلافها – مع أن الأصل واحد– يدل على نفوذ مشيئة الله و عموم قدرته و لهذا قال:–

(يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ)أي: من المخلوقات على ما يشاؤه من الصفات

(إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ)

كما أنزل المطر على الأرض و هو لقاح واحد و الأم واحدة و هي الأرض و الأولاد مختلف و الأصناف و الأوصاف(وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)﴿٤٥﴾

موقف المنافقين من آيات الله 47-50

(لَّقَدۡ)رحمنا عبادنا فـ(أَنزَلۡنَآ)إليهم(ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ)أي: واضحات الدلالة على جميع:–

المقاصد الشرعية و الآداب المحمودة و المعارف الرشيدة فاتضحت بذلك السبل

و تبين الرشد من الغي و الهدى من الضلال فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها و لا أدنى إشكال لمريد

الصواب لأنها تنزيل من كمل علمه و كملت رحمته و كمل بيانه فليس بعد بيانه بيان(لِيَهْلِكَ)

بعد ذلك(مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)

(وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ)ممن سبقت لهم سابقة الحسنى و قدم الصدق

(إِلَىٰ صِرَٰطٖ)طريق (مُّسۡتَقِيمٖ)واضح مختصر موصل إليه و إلى دار كرامته متضمن العلم بالحق و إيثاره

و العمل به.

عمم البيان التام لجميع الخلق و خصص بالهداية من يشاء فهذا فضله و إحسانه و ما فضل الكريم بممنون

و ذاك عدله و قطع الحجة للمحتج و الله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه﴿٤٦﴾

(وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا)

يخبر تعالى عن حالة الظالمين:–ممن في قلبه مرض و ضعف إيمان أو نفاق و ريب و ضعف علم

أنهم يقولون بألسنتهم و يلتزمون الإيمان بالله و الطاعة ثم لا يقومون بما قالوا

(ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ)عن الطاعة توليا عظيما بدليل قوله وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

فإن المتولي قد يكون له نية عود و رجوع إلى ما تولى عنه

و هذا المتولي معرض لا التفات له و لا نظر لما تولى عنه و تجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعى

الإيمان و الطاعة لله و هو ضعيف الإيمان و تجده لا يقوم بكثير من العبادات خصوصا:–

العبادات التى تشق على كثير من النفوس كــ:–

الزكوات و النفقات الواجبة و المستحبة و الجهاد فى سبيل الله و نحو ذلك(وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ)﴿٤٧﴾

(وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ)أي: إذا صار بينهم و بين أحد حكومة و دعوا إلى حكم الله و رسوله

(إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ)يريدون أحكام الجاهلية و يفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية

لعلمهم أن الحق عليهم و أن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع

*وَ هَذِهِ كَقَوْلِهِ:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالا بَعِيدًا60 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا}[النِّسَاءِ] (٤٨)

(وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ)وَ إِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ جَاؤُوا سَامِعِينَ مُطِيعِينَ_أى: إلى حكم الشرع

(مُذۡعِنِينَ)طائعين منقادين لحكمه

*وَ إِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ عَلَيْهِ أَعْرَضَ وَ دَعَا إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ وَ أَحَبَّ أَنْ يَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺلِيُرَوِّجَ بَاطِلَهُ ثَمّ. فَإِذْعَانُهُ أَوَّلًا لَمْ يَكُنْ عَنِ اعْتِقَادٍ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ بَلْ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِهَوَاهُ وَ لِهَذَا لَمَّا خَالَفَ الْحَقُّ قَصْدَهُ عَدَلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ

*و ليس ذلك لأجل أنه حكم شرعى و إنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم فليسوا ممدوحين فى هذه الحال

و لو أتوا إليه مذعنين لأن العبد حقيقة من يتبع الحق فيما يحب و يكره و فيما يسره و يحزنه

و أما الذى يتبع الشرع عند موافقة هواه و ينبذه عند مخالفته و يقدم الهوى على الشرع فليس بعبد على الحقيقة (٤٩)

قال الله فى لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعى:-

(أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ)علة أخرجت القلب عن صحته و أزالت حاسته

فصار بمنزلة المريض الذى يعرض عما ينفعه و يقبل على ما يضره

(أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ)شكوا و قلقت قلوبهم من حكم الله و رسوله و اتهموه أنه لا يحكم بالحق

(أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ)يحكم(ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥ)حكما ظالما جائرا و إنما هذا وصفهم

(بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)و أما حكم الله و رسوله ففى غاية العدالة و القسط و موافقة الحكمة.

(وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) و فى هذه الآيات دليل على:-

1-أن الإيمان ليس هو مجرد القول حتى يقترن به العمل و لهذا نفى الإيمان عمن تولى عن الطاعة

2- وجوب الانقياد لحكم الله و رسوله فى كل حال

3-أن من ينقد له دل على مرض فى قلبه و ريب فى إيمانه و أنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة

و أن يظن بها خلاف العدل و الحكمة(٥٠)

*و لما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعى ذكر حالة المؤمنين الممدوحين فقال:-

(إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)حقيقة الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم

(إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ)حين يدعون إلى الله و رسوله ليحكم بينهم سواء وافق أهواءهم أو خالفها

طاعة المؤمنين لحكم الله و كذب المنافقين فى طاعتهم 51-54

(أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا)حكم الله و رسوله

(وَأَطَعۡنَاۚ)و أجبنا من دعانا إليه و أطعنا طاعة تامة سالمة من الحرج.

(وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ)حصر الفلاح فيهم لأن الفلاح:-

الفوز بالمطلوب و النجاة من المكروه و لا يفلح إلا من حكم الله و رسوله و أطاع الله و رسوله(٥١)

*و لما ذكر فضل الطاعة فى الحكم خصوصا ذكر فضلها عموما فى جميع الأحوال فقال:-

(وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ)فيصدق خبرهما و يمتثل أمرهما

(وَيَخۡشَ ٱللَّهَ)أى: يخافه خوفا مقرونا بمعرفة:-فيترك ما نهى عنه و يكف نفسه عما تهوى و لهذا قال:-

(وَيَتَّقۡهِ)بترك المحظور لأن التقوى – عند الإطلاق- يدخل فيها:-

فعل المأمور و ترك المنهى عنه و عند اقترانها بالبر أو الطاعة- كما فى هذا الموضع -تفسر بـ:-

توقى عذاب الله بترك معاصيه

(فَأُوْلَٰٓئِكَ)الذين جمعوا بين طاعة الله و طاعة رسوله و خشية الله و تقواه

(هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ)بنجاتهم من العذاب لتركهم أسبابه و وصولهم إلى الثواب لفعلهم أسبابه فالفوز محصور فيهم

و أما من لم يتصف بوصفهم فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة

و اشتملت هذه الآية:-على الحق المشترك بين الله و بين رسوله:- و هو: الطاعة المستلزمة للإيمان

و الحق المختص بالله:- و هو:-الخشية و التقوى

و بقى الحق الثالث:-المختص بالرسول و هو التعزير و التوقير كما جمع بين الحقوق الثلاثة فى سورة الفتح

فى قوله:(لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا)(٥٢)

يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺفى الجهاد من المنافقين و من فى قلوبهم مرض و ضعف إيمان

(وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ)فيما يستقبل أو لئن نصصت عليهم حين خرجت

(لَيَخۡرُجُنَّۖ)و المعنى الأول أولى. قال الله – رادا عليهم- :

(قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ)أى:-لا نحتاج إلى إقسامكم و لا إلى أعذاركم فإن الله قد نبأنا من أخباركم

(طَاعَةٞ)أى:-طاعتكم(مَّعۡرُوفَةٌۚ):-لا تخفى علينا

قد كنا نعرف منكم التثاقل و الكسل من غير عذر فلا وجه لعذركم و قسمكم

إنما يحتاج إلى ذلك من كان أمره محتملا و حاله مشتبهة فهذا ربما يفيده العذر براءة

و أما أنتم فكلا و لما و إنما ينتظر بكم و يخاف عليكم حلول بأس الله و نقمته و لهذا توعدهم بقوله:-

(إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ)

*هُوَ خَبِيرٌ بِكُمْ وَ بِمَنْ يُطِيعُ مِمَّنْ يَعْصى فَالْحَلِفُ وَ إِظْهَارُ الطَّاعَةِ -وَ الْبَاطِنُ بِخِلَافِهِ وَ إِنْ رَاجَ عَلَى الْمَخْلُوقِ -فَالْخَالِقُ تَعَالَى يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفَى لَا يَرُوجُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ التَّدْلِيسِ بَلْ هُوَ خَبِيرٌ بِضَمَائِرِ عِبَادِهِ وَ إِنْ أَظْهَرُوا خِلَافَهَا فيجازيكم عليها أتم الجزاء هذه حالهم في نفس الأمر ﴿٥٣﴾

و أما الرسول عليه الصلاة و السلام فوظيفته أن يأمركم و ينهاكم و لهذا قال:-

قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾

(قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ)امتثلوا كان حظكم و سعادتكم (فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ)من الرسالة و قد أداها

(وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ)من الطاعة و قد بانت حالكم و ظهرت فبان ضلالكم و غيكم و استحقاقكم العذاب.

(وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ)إلى الصراط المستقيم قولا و عملا

فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته و بدون ذلك لا يمكن بل هو محال.

وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ{صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ}[الشُّورَى53] .

(وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ)أي: تبليغكم البين الذي لا يبقي لأحد شكا و لا شبهة و قد فعل ﷺ بلغ البلاغ المبين و إنما الذى يحاسبكم و يجازيكم هو الله تعالى فالرسول ليس له من الأمر شيء و قد قام بوظيفته كَقَوْلِهِ:{فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}[الرَّعْد: 40] وَ قَوْلِهِ{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ21 لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}[الْغَاشِيَةِ]

(وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ)

سنة الله في العباد 55-57

أن يستخلفهم فى الأرض يكونون هم الخلفاء فيها المتصرفين فى تدبيرها

*هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ أُمَّتَهُ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَىْ: أَئِمَّةَ النَّاسِ و الوُلاةَ عَلَيْهِمْ وَ بِهِمْ تَصْلُحُ الْبِلَادُ وَ تَخْضَعُ لَهُمُ الْعِبَادُ و لَيُبدلَنّ بَعْدَ خَوْفِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَمْنًا وَ حُكْمًا فِيهِمْ وَ قَدْ فَعَلَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى ذَلِكَ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ الْمِنَّةُ

فَإِنَّهُ لَمْ يَمُتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺحَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَ خَيْبَرَ وَ الْبَحْرَيْنِ وَ سَائِرَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَ أَرْضَ الْيَمَنِ بِكَمَالِهَا.

وَ أَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْ مَجُوسِ هَجَر وَ مِنْ بَعْضِ أَطْرَافِ الشَّامِ وَ هَادَاهُ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ وَ صَاحِبُ مِصْرَ

وَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ -وَ هُوَ الْمُقَوْقِسُ -وَ مُلُوكُ عُمَانَ وَ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ الَّذِى تَمَلَّك بَعْدَ أَصْحَمة رَحِمَهُ اللَّهُ وَ أَكْرَمَهُ.

ثُمَّ لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺوَ اخْتَارَ اللَّهُ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ خَلِيفَتُهُ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِّيقُ فَلَمّ شَعَث مَا وَ هَى عِنْدَ مَوْتِهِ ﷺو أَطَّدَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ وَ مَهَّدَهَا وَ بَعَثَ الْجُيُوشَ الْإِسْلَامِيَّةَ إِلَى بِلَادِ فَارِسَ صُحْبَةَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ﷺ فَفَتَحُوا طَرَفًا مِنْهَا وَ قَتَلُوا خَلْقًا مِنْ أَهْلِهَا.

وَ جَيْشًا آخَرَ صُحْبَةَ أَبِي عُبَيْدَةَ ﷺوَ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْأُمَرَاءِ إِلَى أَرْضِ الشَّام

وَ ثَالِثًا صُحْبَةَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِﷺإِلَى بِلَادِ مِصْرَ فَفَتَحَ اللَّهُ لِلْجَيْشِ الشَّامِيِّ فِي أَيَّامِهِ بُصرى وَ دِمَشْقَ و مَخَالِيفهما مِنْ بِلَادِ حَوران وَمَا وَالَاهَا وَ تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَ اخْتَارَ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ.

و مَنّ عَلَى الْإِسْلَامِ وَ أَهْلِهِ بِأَنْ أَلْهَمَ الصَّدِّيقَ أَنِ اسْتَخْلَفَ عُمَرَ الْفَارُوقَ فَقَامَ فِي الْأَمْرِ بَعْدَهُ قِيَامًا تَامًّا لَمْ يَدُرِ الْفُلْكُ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى مِثْلِهِ فِي قُوَّةِ سِيرَتِهِ وَ كَمَالِ عَدْلِهِ.

وَ تَمَّ فِي أَيَّامِهِ فَتْحُ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ بِكَمَالِهَا وَ دِيَارِ مِصْرَ إِلَى آخِرِهَا وَ أَكْثَرِ إِقْلِيمِ فَارِسَ و كَسَّرَ كِسْرَى وَ أَهَانَهُ غَايَةَ الْهَوَانِ وَ تَقَهْقَرَ إِلَى أَقْصَى مَمْلَكَتِهِ و قَصَّرَ قَيْصَرَ وَ انْتَزَعَ يَدَهُ عَنْ بِلَادِ الشَّامِ فَانْحَازَ إِلَى قُسْطَنْطِينَةَ وَ أَنْفَقَ أموالهما فِي سبيل الله كما أخبر بِذَلِكَ وَ وَعَدَ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَتَمُّ سَلَامٍ وَ أَزْكَى صَلَاةٍ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَت الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ:-امْتَدَّتِ الْمَمَالِيكُ الْإِسْلَامِيَّةُ إِلَى أَقْصَى مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبِهَا فَفُتِحَتْ بِلَادُ الْمَغْرِبِ إِلَى أَقْصَى مَا هُنَالِكَ:-الْأَنْدَلُسُ وَ قُبْرُصُ وَ بِلَادُ الْقَيْرَوَانِ وَ بِلَادُ سَبْتَةَ مِمَّا يَلِى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ

وَ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ إِلَى أَقْصَى بِلَادِ الصِّينِ

وَ قُتِلَ كِسْرَى وَ بَادَ مُلْكُهُ بِالْكُلِّيَّةِ.وَ فُتِحَتْ مَدَائِنُ الْعِرَاقِ وَ خُرَاسَانُ وَ الْأَهْوَازُ

وَ قَتَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ التُّرْكِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً جِدًّا وَ خَذَلَ اللَّهُ مَلِكَهُمُ الْأَعْظَمَ خَاقَانَ

و جُبِي الْخَرَاجُ مِنَ الْمَشَارِقِ وَ الْمَغَارِبِ إِلَى حَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺوَ ذَلِكَ بِبَرَكَةِ تِلَاوَتِهِ وَ دِرَاسَتِهِ وَ جَمْعِهِ الْأُمَّةَ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ وَ لِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ

*مسلم(2889) عَنْ ثَوْبَانَﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

إِنَّ اللهَ زَوَى(جمع) لِي الْأَرْض فَرَأَيْتُ مَشارِقَهَا وَ مَغارِبَهَا وَ إِنَّ أُمَّتِى سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِىَ لِي مِنْهَا

وَ أُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَ الْأَبْيَضَ(المراد بالكنزين الذهب والفضة والمراد كنزا كسرى وقيصر ملكي العراق والشام)

وَ إِنِّى سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِى أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ

وَ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيح بَيْضَتَهُمْ وَ إِنَّ رَبِّي قَالَ:-

يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَ إِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ(أى لا أهلكهم بقحط يعمهم بل إن وقع قحط فيكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام)وَ أَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ (أى جماعتهم وأصلهم والبيضة أيضا العز والملك)

وَ لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا-أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا-حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَ يَسْبِى بَعْضُهُمْ بَعْضًا "

*الصحيح المسند من أسباب النزول:الحاكم عن أبي بن كعب ﷺقال:-

لما قدم رسول الله ﷺو أصحابه المدينة و آوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا ترون أنا نعيش حتى نكون آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا}إلى{فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ}يعنى بالنعمة{فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.

*هذا من أوعاده الصادقة التي شوهد تأويلها و مخبرها فإنه وعد من قام بالإيمان و العمل الصالح من هذه الأمة

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ)و أنه يمكن لهم دينهم و هو دين الإسلام الذى فاق الأديان كلها

(ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ)ارتضاه لهذه الأمة لفضلها و شرفها و نعمته عليها بأن يتمكنوا من إقامته و إقامة شرائعه الظاهرة و الباطنة فى أنفسهم و في غيرهم لكون غيرهم من أهل الأديان و سائر الكفار مغلوبين ذليلين

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُم)و أنه يبدلهم(مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ)الذى كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه

(أَمْنًا)و ما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار و كون جماعة المسلمين قليلين جدا بالنسبة إلى غيرهم و قد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة و بغوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية و هى لم تشاهد الاستخلاف فى الأرض و التمكين فيها و التمكين من إقامة الدين الإسلامى و الأمن التام

*البخارى3595 عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه قَالَ:-بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺإِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الفَاقَةَ(الفقر)

ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ فَقَالَ:«يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ(بلد معروف قديما مجاور للكوفة)؟»

قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا قَالَ«فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ(هو فى الأصل اسم الهوج ثم قيل للمرأة في الهودج وقد تقال للمرأة مطلقا)تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ-قُلْتُ فِيمَا بَيْنِى وَ بَيْنَ نَفْسى فَأَيْنَ دُعَّارُ(جمع داعر وهو الخبيث المفسد الفاسق والمراد بهم قطاع الطرق) طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا البِلاَدَ(أشعلوا فيها نار الفتنة وأفسدوها) -

وَ لَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى»قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ:-"كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ"

وَ لَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ وَ لَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ

فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟فَيَقُولُ: بَلَى فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَ أُفْضِلْ عَلَيْكَ؟

فَيَقُولُ: بَلَى فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ وَ يَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ "

قَالَ عَدِيٌّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:-«اتَّقُوا النَّارَ وَ لَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»

قَالَ عَدِيٌّ:-فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَ كُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَ لَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو القَاسِمِ:- ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ

(يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا)بحيث يعبدون الله و لا يشركون به شيئا و لا يخافون أحدا إلا الله

فقام صدر هذه الأمة من الإيمان و العمل الصالح بما يفوقون على غيرهم فـــ:–

1–مكنهم من البلاد و العباد2–و فتحت مشارق الأرض و مغاربها3–و حصل الأمن التام و التمكين التام

فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة و لا يزال الأمر إلى قيام الساعة مهما قاموا بالإيمان و العمل الصالح

فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله و إنما يسلط عليهم الكفار و المنافقين: و يديلهم فى بعض الأحيان:–

بسبب إخلال المسلمين بالإيمان و العمل الصالح.

(وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ)التمكين و السلطنة التامة لكم يا معشر المسلمين

(فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)الذين خرجوا عن طاعة الله و فسدوا فلم يصلحوا لصالح و لم يكن فيهم أهلية للخير لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه و قهره و عدم وجود الأسباب المانعة منه يدل على فساد نيته و خبث طويته لأنه لا داعى له لترك الدين إلا ذلك. و دلت هذه الآية أن الله قد مكن من قبلنا و استخلفهم فى الأرض كما قال موسى لقومه:-(وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَو قال تعالى:-

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ)

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)يأمر تعالى بإقامة الصلاة بأركانها و شروطها و آدابها ظاهرا و باطنا

(وَآتُوا الزَّكَاةَ)و يأمر تعالى بإيتاء الزكاة من الأموال التى استخلف الله عليها العباد و أعطاهم إياها بأن يؤتوها الفقراء و غيرهم ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة

فهذان أكبر الطاعات و أجلهما جامعتان لحقه و حق خلقه للإخلاص للمعبود و للإحسان إلى العبيد

ثم عطف عليهما الأمر العام فقال:-

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)و ذلك بامتثال أوامره و اجتناب نواهيه (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

(لَعَلَّكُمْ)حين تقومون بذلك(تُرْحَمُونَ)

فمن أراد الرحمة فهذا طريقها و من رجاها من دون إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و إطاعة الرسول فهو متمن كاذب و قد منته نفسه الأمانى الكاذبة(٥٧)

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)فلا يغرك ما متعوا به في الحياة الدنيا

فإن الله و إن أمهلهم فإنه لا يهملهم(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ) و لهذا قال هنا:-

(وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ)هو:-المآل مآل الكافرين مآل الشر و الحسرة و العقوبة الأبدية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)أمر المؤمنين أن يستأذنهم مماليكهم

آداب البيوت 58-61

(وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ)منهم. قد ذكر الله حكمته

(وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)و أنه ثلاث عورات للمستأذن عليهم:-

1-(مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ)و عند انتباههم قبل صلاة الفجر فهذا-فى الغالب-أن النائم يستعمل للنوم فى الليل ثوبا غير ثوبه المعتاد

2-و أما نوم النهار فلما كان فى الغالب قليلا قد ينام فيه العبد بثيابه المعتادة قيده بقوله:-

(وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ)أى: للقائلة وسط النهار.

3–وقت نومهم بالليل بعد العشاء(وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ)

(ثَلَٰثُ)و هذه الأوقات الثلاثة(عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ)يقل فيها التستر

*ففى ثلاثة هذه الأحوال يكون المماليك و الأولاد الصغار كغيرهم لا يمكنون من الدخول إلا بإذن{لحاجتهم فى الدخول عليكم}

*و أما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال:–

(لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ)ليسوا كغيرهم فإنهم يحتاج إليهم دائما فيشق الاستئذان منهم فى كل وقت و لهذا قال:–

(طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم)فِي الْخِدْمَةِ وَ قضاء أشغالكم و حوائجكم وَ يُغْتَفَرُ فِي الطَّوَّافِينَ مَا لَا يُغْتَفَرُ فِي غَيْرِهِمْ

(بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ)

وَ لِهَذَا رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَ أَهْلُ السُّنَنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺقَالَ فِي الهِرَّة:-
"إِنَّهَا لَيْسَتْ بنجس إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ -أَوْ -وَ الطَّوَّافَاتِ".
وَ لَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُحْكَمَةً وَ لَمْ تُنْسَخْ بِشَيْءٍ وَ كَانَ عَمَلُ النَّاسِ بِهَا قَلِيلًا جَدًّا أَنْكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ
*أبي داود 5191 - عن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺيَقُولُ:-
«لَمْ يُؤْمَرْ بِهَا أَكْثَرُ النَّاسِ آيَةَ الْإِذْنِ وَ إِنِّي لَآمُرُ جَارِيَتِي هَذِهِ تَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ»(صحيح الإسناد موقوف)
*أبي داود 5192 - عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ قَالُوا:- يَا ابْنَ عَبَّاسٍ كَيْفَ تَرَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي أُمِرْنَا فِيهَا بِمَا أُمِرْنَا وَ لَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ؟قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ} [النور: 58](لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ)قَرَأَ الْقَعْنَبِيُّ إِلَى {عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [النور: 59]قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:-«إِنَّ اللَّهَ حَلِيمٌ رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّ السَّتْرَ وَ كَانَ النَّاسُ لَيْسَ لِبُيُوتِهِمْ سُتُورٌ وَ لَا حِجَالٌ فَرُبَّمَا دَخَلَ الْخَادِمُ أَوِ الْوَلَدُ أَوْ يَتِيمَةُ الرَّجُلِ وَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي تِلْكَ الْعَوْرَاتِ فَجَاءَهُمُ اللَّهُ بِالسُّتُورِ وَ الْخَيْرِ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا يَعْمَلُ بِذَلِكَ بَعْدُ»

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ)بيانا مقرونا بحكمته ليتأكد و تقوى و يعرف به رحمة شارعه و حكمته

و لهذا قال:–

(وَٱللَّهُ عَلِيمٌ)له العلم المحيط بالواجبات و المستحيلات و الممكنات

(حَكِيمٞ)له الحكمة التى وضعت كل شيء موضعه فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به

*و أعطى كل حكم شرعى حكمه اللائق به و منه هذه الأحكام التى بينها و بين مآخذها و حسنها(٥٨)

وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾

(وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ)و هو إنزال المنى يقظة أو مناما *قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ:-
إِذَا كَانَ الْغُلَامُ رَبَاعِيًّا فَإِنَّهُ يَسْتَأْذِنُ فِي الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ عَلَى أَبَوَيْهِ فَإِذَا بَلَغَ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنْ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

(فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ)كَمَا اسْتَأْذَنَ الْكِبَارُ مِنْ وَلَدِ الرَّجُلِ وَ أَقَارِبِهِ.

أى:فى سائر الأوقات و الذين من قبلهم هم الذين ذكرهم الله بقوله:-

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا)الآية.

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ)و يوضحها ويفصل أحكامها (وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ)

و فى هاتين الآيتين فوائد:-

1-أن السيد و ولى الصغير مخاطبان بتعليم عبيدهم و من تحت ولايتهم من الأولاد العلم و الآداب الشرعية لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ)الآية و لا يمكن ذلك إلا بالتعليم و التأديب و لقوله:-(لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ)

2-الأمر بحفظ العورات و الاحتياط لذلك من كل وجه و أن المحل و المكان الذى هو مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه أنه منهي عن الاغتسال فيه و الاستنجاء و نحو ذلك.

3-جواز كشف العورة لحاجة كالحاجة عند النوم و عند البول و الغائط و نحو ذلك.

4-أن المسلمين كانوا معتادين للقيلولة وسط النهار كما اعتادوا نوم الليل لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

5–أن الصغير الذى دون البلوغ لا يجوز أن يمكن من رؤية العورة و لا يجوز أن ترى عورته لأن الله لم يأمر باستئذانهم إلا عن أمر ما يجوز.

6–أن المملوك أيضا لا يجوز أن يرى عورة سيده كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته كما ذكرنا في الصغير.

7–أنه ينبغي للواعظ و المعلم ونحوهم ممن يتكلم فى مسائل العلم الشرعى أن يقرن بالحكم بيان مأخذه و وجهه و لا يلقيه مجردا عن الدليل و التعليل لأن الله – لما بين الحكم المذكور– علله بقوله:–

(ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ)

8–أن الصغير و العبد مخاطبان كما أن وليهما مخاطب لقوله:-(لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ)

9–أن ريق الصبى طاهر و لو كان بعد نجاسة كالقيء لقوله تعالى:–(طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ) مع قول النبى ﷺحين سئل عن الهرة:–« إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات »

10–جواز استخدام الإنسان من تحت يده من الأطفال على وجه معتاد لا يشق على الطفل لقوله (طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ)

11–أن الحكم المذكور المفصل إنما هو لما دون البلوغ فأما ما بعد البلوغ فليس إلا الاستئذان.

12–أن البلوغ يحصل بالإنزال فكل حكم شرعى رتب على البلوغ حصل بالإنزال و هذا مجمع عليه و إنما الخلاف هل يحصل البلوغ بالسن أو الإنبات للعانة و الله أعلم59

(وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ)

اللاتى قعدن عن الاستمتاع و الشهوة_هُنَّ اللَّوَاتِي انْقَطَعَ عَنْهُنَّ الْحَيْضُ وَ يَئِسْنَ مِنَ الْوَلَدِ

(ٱلَّتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا)أى: لا يطمعن فى النكاح و لا يُطمع فيهن و ذلك لكونها عجوزا لا تُشتهى أو دميمة الخلقة لا تَشْتَهى و لا تُشْتَهى

*أبي داود 4111 -عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ﷛{وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ}[النور: 31] الْآيَةَ فَنُسِخَ وَ اسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ:{وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا} [النور: 60] " الْآيَةَ

(فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ)حرج و إثم

(أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ)الثياب الظاهرة كالخمار و نحوه الذى قال الله فيه للنساء(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) فهؤلاء يجوز لهن أن يكشفن وجوههن لآمن المحذور منها و عليها

و لما كان نفى الحرج عنهن فى وضع الثياب ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء دفع هذا الاحتراز بقوله:

(غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِ)مظهرات للناس

(بِزِينَةٍ)من تجمل بثياب ظاهرة و تستر وجهها و من ضرب الأرض برجلها ليعلم ما تخفي من زينتها لأن مجرد الزينة على الأنثى و لو مع تسترها و لو كانت لا تشتهى يفتن فيها و يوقع الناظر إليها في الحرج

(وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ) و لُبْسهن هذه الثياب -سترًا و تعففًا-(خَيْرٌ)أحسن (لَّهُنَّ)

و الاستعفاف:–طلب العفة بفعل الأسباب المقتضية لذلك من تزوج و ترك لما يخشى منه الفتنة

(وَٱللَّهُ سَمِيعٌ)لجميع الأصوات

(عَلِيمٌ)بالنيات و المقاصد فليحذرن من كل قول و قصد فاسد و ليعلمن أن الله يجازى على ذلك60

*يخبر تعالى عن منته على عباده و أنه لم يجعل عليهم فى الدين من حرج بل يسره غاية التيسير قال:–

(لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ)

*اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ -فِي الْمَعْنَى الَّذِى رَفَعَ مِنْ أَجْلِهِ الْحَرَجَ عَنِ الْأَعْمَى وَ الْأَعْرَجِ وَ الْمَرِيضِ هَاهُنَا فَقَالَ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ وَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ:- نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ.
أَيْ: أَنَّهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ لِضَعْفِهِمْ وَ عَجْزِهِمْ وَ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ:-
{لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ 91وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}[التَّوْبَةِ]
*وَ قِيلَ: الْمُرَادُ هَاهُنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْأَكْلِ مَعَ الْأَعْمَى لِأَنَّهُ لَا يَرَى الطَّعَامَ وَ مَا فِيهِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَرُبَّمَا سَبَقَهُ غَيْرُهُ إِلَى ذَلِكَ. وَ لَا مَعَ الْأَعْرَجِ لِأَنَّهُ لَا يَتَمَكَّنُ مِنَ الْجُلُوسِ فَيَفْتَاتُ عَلَيْهِ جليسُه
وَ الْمَرِيضُ لَا يَسْتَوْفِي مِنَ الطَّعَامِ كَغَيْرِهِ فَكَرِهُوا أَنْ يُؤَاكِلُوهُمْ لِئَلَّا يَظْلِمُوهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ رُخْصَةً فِي ذَلِكَ

*أي: ليس على هؤلاء جناح في ترك الأمور الواجبة التى تتوقف على واحد منها و ذلك كالجهاد و نحوه مما يتوقف على بصر الأعمى أو سلامة الأعرج أو صحة للمريض و لهذا المعنى العام الذى ذكرناه أطلق الكلام فى ذلك و لم يقيد كما قيد قوله:–(وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ)حرج(أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ)بيوت أولادكم

و هذا موافق للحديث الثابت:«أنت و مالك لأبيك»و الحديث الآخر:«إن أطيب ما أكلتم من كسبكم و إن أولادكم من كسبكم »و ليس المراد من قوله:–(مِنۢ بُيُوتِكُمْ)بيت الإنسان نفسه

فإن هذا من باب تحصيل الحاصل الذى ينزه عنه كلام الله و لأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين و أما بيت الإنسان نفسه فليس فيه أدنى توهم.

(أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ)و هؤلاء معروفون

(أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ)البيوت التى أنتم متصرفون فيها بوكالة أو ولاية و نحو ذلك

*هُوَ خَادِمُ الرَّجُلِ مِنْ عَبْدٍ و قَهْرَمان فَلَا بَأْسَ أَنْ يَأْكُلَ مِمَّا اسْتَوْدَعَهُ مِنَ الطَّعَامِ بِالْمَعْرُوفِ.

و أما تفسيرها بالمملوك فليس بوجيه لوجهين:–

1–أن المملوك لا يقال فيه «ملكت مفاتحه» بل يقال:–«ما ملكتموه»(أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)
لأنهم مالكون له جملة لا لمفاتحه فقط.

2–أن بيوت المماليك غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه لأن المملوك و ما ملكه لسيده فلا وجه لنفى الحرج عنه

(أَوْ صَدِيقِكُمْ)بُيُوتِ أَصْدِقَائِكُمْ وَ أَصْحَابِكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي الْأَكْلِ مِنْهَا إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ وَ لَا يَكْرَهُونَ ذَلِكَ.

*وَ قَالَ قَتَادَةُ: إِذَا دَخَلْتَ بَيْتَ صَدِيقِكَ فَلَا بَأْسَ أَنْ تَأْكُلَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ.

*و هذا الحرج المنفى عن الأكل من هذه البيوت كل ذلك إذا كان بدون إذن و الحكمة فيه معلومة من السياق فإن هؤلاء المسمين قد جرت العادة و العرف بالمسامحة في الأكل منها لأجل القرابة القريبة أو التصرف التام أو الصداقة

*فلو قدر فى أحد من هؤلاء عدم المسامحة و الشح في الأكل المذكور لم يجز الأكل و لم يرتفع الحرج نظرا للحكمة و المعنى. و قوله:–(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا)
فكل ذلك جائز أكل أهل البيت الواحد جميعا أو أكل كل واحد منهم وحده
و هذا نفى للحرج لا نفى للفضيلة و إلا فالأفضل الاجتماع على الطعام.

(فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا)
نكرة فى سياق الشرط يشمل بيت الإنسان و بيت غيره سواء كان فى البيت ساكن أم لا فإذا دخلها الإنسان

(فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ)أى: فليسلم بعضكم على بعض لأن المسلمين كأنهم شخص واحد من توادهم و تراحمهم و تعاطفهم فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت من غير فرق بين بيت و بيت و الاستئذان تقدم أن فيه تفصيلا في أحكامه

*صحيح الأدب المفرد 1005/773- عَنْ ثَابِتِ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ:-
أَتَيْتُ مَجْلِسًا فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فَقَالَ:-" إِذَا سَلَّمْتَ فَأَسْمِعْ فَإِنَّهَا تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً".
ثم مدح هذا السلام فقال:–

(تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً)أى: سلامكم بقولكم:« السلام عليكم و رحمة الله و بركاته »
أو « السلام علينا و على عباد الله الصالحين »إذ تدخلون البيوت

(تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ)أى: قد شرعها لكم و جعلها تحيتكم

(مُبَٰرَكَةً)لاشتمالها على السلامة من النقص و حصول الرحمة و البركة و النماء و الزيادة

(طَيِّبَةً)لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله الذى فيه طيب نفس للمحيا و محبة و جلب مودة.

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة قال:-

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ)الدالات على أحكامه الشرعية و حكمها

(لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)عنه فتفهمونها و تعقلونها بقلوبكم

و لتكونوا من أهل العقول و الألباب الرزينة فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها يزيد في العقل و ينمو به اللب لكون معانيها أجل المعانى و آدابها أجل الآداب و لأن الجزاء من جنس العمل فكما استعمل عقله للعقل عن ربه و للتفكر فى آياته التى دعاه إليها زاده من ذلك.

و فى هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية و هي:-

1-أن«العرف و العادة مخصص للألفاظ كتخصيص اللفظ للفظ»

فإن الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء للعرف و العادة فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء إذا علم إذنه بالقول أو العرف جاز الإقدام عليه.

2-و فيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ و يتملك من مال ولده ما لا يضره لأن الله سمى بيته بيتا للإنسان.

3- و فيها دليل على أن المتصرف فى بيت الإنسان كزوجته و أخته و نحوهما:-يجوز لهما الأكل عادة و إطعام السائل المعتاد.

4- و فيها دليل على جواز المشاركة فى الطعام سواء أكلوا مجتمعين أو متفرقين و لو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض﴿٦١﴾

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ
فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٢﴾
لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ
فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾
أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾

25-سورة الفرقان-مكية-بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾
ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾

(إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ)هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين

آداب معاملة المؤمنين للنبى ﷺ 62-63

(وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ)أى:–مع الرسول ﷺ

(عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ)أى: من ضرورته أو من مصلحته أن يكونوا فيه جميعا كـــ:–
الجهاد و المشاورة و نحو ذلك من الأمور التى يشترك فيها المؤمنون فإن المصلحة تقتضى اجتماعهم عليه و عدم تفرقهم فالمؤمن بالله و رسوله حقا لا يذهب لأمر من الأمور لا يرجع لأهله

(لَّمۡ يَذۡهَبُواْ)لم ينصرف أحد منهم(حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ)

*و لا يذهب لبعض الحوائج التى يشذ بها عنهم إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده فجعل موجب الإيمان عدم الذهاب إلا بإذن و مدحهم على فعلهم هذا و أدبهم مع رسوله و ولى الأمر منهم فقال:–

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ)و لكن هل يأذن لهم أم لا؟ذكر لإذنه لهم شرطين:–

1–أن يكون لشأن من شئونهم و شغل من أشغالهم فأما من يستأذن من غير عذر فلا يؤذن له.

2–أن يشاء الإذن فتقتضيه المصلحة من دون مضرة بالآذن قال:–

(فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ)حاجتهم

(فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ)ممن طلب الإذن فى الانصراف لعذر

*فإذا كان له عذر و استأذن فإن كان فى قعوده و عدم ذهابه مصلحة برأيه أو شجاعته و نحو ذلك

لم يأذن له و مع هذا إذا استأذن و أذن له بشرطيه أمر الله رسوله أن يستغفر له لما عسى أن يكون مقصرا فى

الاستئذان و لهذا قال:–

(وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)يغفر لهم الذنوب و يرحمهم بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر﴿٦٢﴾

(لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ)نداء(ٱلرَّسُولِ)و دعائكم للرسول(بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ)كمناداة(بَعْضِكُم بَعْضًاۚ)

*فإذا دعاكم فأجيبوه وجوبا حتى إنه تجب إجابة الرسول ﷺفى حال الصلاة و ليس أحد إذا قال قولا يجب

على الأمة قبول قوله و العمل به إلا الرسول لعصمته و كوننا مخاطبين باتباعه قال تعالى:–

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

و كذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضا فلا تقولوا:–«يا محمد»عند ندائكم

أو « يا محمد بن عبد الله »أو يا أبا القاسم كما يقول ذلك بعضكم لبعض بل من شرفه و فضله و تميزه ﷺعن

غيره أن يقال:–يا رسول الله يا نبى الله(ليس المراد من الدعاء هنا الطلب بل النداء)

*لما مدح المؤمنين بالله و رسوله الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه:–

توعد من لم يفعل ذلك و ذهب من غير استئذان فهو و إن خفى عليكم بذهابه على وجه خفى

(قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ)المنافقين(ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ)يخرجون من مجلس النبى ﷺخفية بغير إذنه

(لِوَاذًا)يستر بعضهم ببعض_يستترون وقت تسللهم بشىء يحجبهم عن العيون_لِوَاذًا عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ وَ عَنْ كِتَابِهِ

فالله يعلمهم و سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء *و لهذا توعدهم بقوله:–

(فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ)أى: يذهبون إلى بعض شئونهم

(عَنْ أَمْرِهِۦٓ)عن أمر الله و رسوله فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شئونه؟و إنما ترك أمر الله من دون شغل له.

*عَنْ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺسبيله هو وَ مِنْهَاجُهُ وَ طَرِيقَتُهُ وَ سُنَّتُهُ وَ شَرِيعَتُهُ فَتُوزَنُ الْأَقْوَالُ وَ الْأَعْمَالُ بِأَقْوَالِهِ

وَ أَعْمَالِهِ فَمَا وَافَقَ ذَلِكَ قُبِلَ وَ مَا خَالَفَهُ فَهُوَ مَرْدُود عَلَى قَائِلِهِ وَ فَاعِلِهِ كَائنًا مَا كَانَ

كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ و غَيْرِهِمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺأَنَّهُ قَالَ:-(مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدّ)

(أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ)شرك و شر فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ[كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ بِدْعَةٍ]

(أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)فِي الدُّنْيَا بِقَتْلٍ أَوْ حَد أَوْ حَبْسٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مؤلم موجع فى الآخرة﴿٦٣﴾

(أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ)ملكا و عبيدا يتصرف فيهم بحكمه القدرى و حكمه الشرعى.

ملك الله و علمه و قدرته 64

(قَدْ) و"قَدْ" لِلتَّحْقِيقِ كَمَا قَالَ قَبْلَهَا:{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا}

وَ قَالَ تَعَالَى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [الْأَحْزَابِ: 18]

فَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا تَحْقِيقُ الْفِعْلِ بِـ (قَدْ):-كَمَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ تَحْقِيقًا وَ ثُبُوتًا:-
"قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ"

(يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ)أى: قد أحاط علمه بما أنتم عليه من خير و شر
و علم جميع أعمالكم أحصاها علمه و جرى بها قلمه و كتبتها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون.
هُوَ عَالِمٌ بِهِ مُشَاهِدٌ لَهُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ كَمَا قَالَ{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ217وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ217 إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشُّعَرَاء] وَ قَالَ{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يُونُس: 61] وَ قَالَ{أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}[الرَّعْد: 33]أَىْ:-هُوَ شَهِيدٌ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا هُمْ فَاعِلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ وَ قَالَ{أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[هُود: 5]

(وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ)فى يوم القيامة

(فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ)يخبرهم بجميع أعمالهم دقيقها و جليلها إخبارا مطابقا لما وقع منهم
و يستشهد عليهم أعضاءهم فلا يعدمون منه فضلا أو عدلا.

و لما قيد علمه بأعمالهم ذكر العموم بعد الخصوص فقال:–(وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤)

تفسير سورة الفرقان–و هى مكية عند الجمهور–بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بيان لعظمته الكاملة و تفرده بالوحدانية من كل وجه و كثرة خيراته و إحسانه فقال:–

(تَبَارَكَ)تعاظم و كملت أوصافه و كثرت خيراته الذى من أعظم خيراته و نعمه أن:–

(نَزَّلَ)فَعَّل مِنَ التَّكَرُّرِ وَ التَّكَثُّرِ كَمَا قَالَ:{وَالْكِتَابِ الَّذِى نزلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزلَ مِنْ قَبْلُ}[النِّسَاء: 136]
لِأَنَّ الْكُتُبَ الْمُتَقَدِّمَةَ كَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَ الْقُرْآنُ نَزَلَ مُنَجَّماً مُفَرَّقاً مُفَصَّلًا
آيَاتٍ بَعْدَ آيَاتٍ وَ أَحْكَامًا بَعْدَ أَحْكَامٍ وَ سُورًا بَعْدَ سُوَرٍ
وَ هَذَا أَشَدُّ وَ أَبْلَغُ وَ أَشَدُّ اعْتِنَاءً بِمَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ السُّورَةِ:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نزلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا32 وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}[الْفُرْقَان]

(ٱلۡفُرۡقَانَ)سَمَّاهُ هَاهُنَا الْفُرْقَانَ الفارق بين الحلال و الحرام و الهدى و الضلال و أهل السعادة من أهل الشقاوة
يَفْرِقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ وَ الْغَيِّ وَ الرَّشَادِ

الرد على المشركين1-10

(عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ)محمد ﷺ الذى كمل مراتب العبودية و فاق جميع المرسلين
*هَذِهِ صِفَةُ مَدْحٍ وَ ثَنَاءٍ لِأَنَّهُ أَضَافَهُ إِلَى عُبُودِيَّتِهِ كَمَا وَصَفَهُ بِهَا فِي أَشْرَفِ أَحْوَالِهِ وَ هِىَ لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ فَقَالَ:
{سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا}[الْإِسْرَاء: 1]وَ كَمَا وَصَفَهُ بِذَلِكَ فِي مَقَامِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ:
{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}[الْجِنّ: 19]
وَ كَذَلِكَ وَصَفَهُ عِنْدَ إِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ وَ نُزُولِ الْمَلَكِ إِلَيْهِ فَقَالَ:-

{تَبَارَكَ الَّذِى نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}

(لِيَكُونَ)ذلك الإنزال للفرقان على عبده

(لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا)ينذرهم بأس الله و نقمه و يبين لهم مواقع رضا الله من سخطه

حتى إن من قبل نذارته و عمل بها كان من الناجين فى الدنيا و الآخرة الذين حصلت لهم السعادة الأبدية

و الملك السرمدى فهل فوق هذه النعمة و هذا الفضل و الإحسان شيء؟

فتبارك الذى هذا من بعض إحسانه و بركاته.

*الذى أرسلنى هو مالك السموات وَ الْأَرْضِ الَّذِى يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ وَ هُوَ الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ

*إِنَّمَا خصَّه بِهَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ الْمُبِينِ الْمُفَصَّلِ الْمُحْكَمِ الَّذِى:{لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42] الَّذِى جَعَلَهُ فُرْقَانًا عَظِيمًا–إِنَّمَا خَصَّهُ بِهِ لِيَخُصَّهُ بِالرِّسَالَةِ إِلَى مَنْ يَسْتَظِلُّ بِالْخَضْرَاءِ وَ يَسْتَقِلُّ عَلَى الْغَبْرَاءِ كَمَا قَالَ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فى مسلم:-

"بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَ الْأَسْوَدِ" وَ قَالَ: "أُعْطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِى"

فَذَكَرَ مِنْهُنَّ: أَنَّهُ "كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَ بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً" وَ قَالَ اللَّهُ:-

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [الأعراف: 158] (١)

(ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)

له التصرف فيهما وحده و جميع من فيهما مماليك و عبيد له مذعنون لعظمته خاضعون لربوبيته فقراء إلى رحمته

(وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ)

و كيف يكون له ولد أو شريك و هو المالك و غيره مملوك و هو القاهر و غيره مقهور و هو الغنى بذاته من

جميع الوجوه و المخلوقون مفتقرون إليه فقرا ذاتيا من جميع الوجوه؟

و كيف يكون له شريك فى الملك و نواصى العباد كلهم بيديه فلا يتحركون أو يسكنون و لا يتصرفون إلا بإذنه

فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فلم يقدره حق قدره من قال فيه ذلك و لهذا قال:–

(وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ)شمل العالم العلوى و العالم السفلى من حيواناته و نباتاته و جماداته

(فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا)فسوَّاه على ما يناسبه من الخلق وَفْق ما تقتضيه حكمته دون نقص أو خلل.

*كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ مَرْبُوبٌ وَ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ رَبُّهُ وَ مَلِيكُهُ وَ إِلَهُهُ وَ كُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ و تسخيره و تدبيره و تقديره .

*أى: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به و يناسبه من الخلق و ما تقتضيه حكمته من ذلك بحيث صار كل

مخلوق لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله و صورته المشاهدة

بل كل جزء و عضو من المخلوق الواحد لا يناسبه غير محله الذى هو فيه قال تعالى:–

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى)و قال(رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)(٢)

*و لما بين كماله و عظمته و كثرة إحسانه كان ذلك مقتضيا لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم المفرد بالإخلاص وحده لا شريك له ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه فقال:–

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

(وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا)

أي: من أعجب العجائب و أدل الدليل على سفههم و نقص عقولهم بل أدل على ظلمهم و جراءتهم على ربهم أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة فى كمال العجز أنها لا تقدر على خلق شيء بل هم مخلوقون بل بعضهم مما عملته أيديهم

(وَهُمْ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)أى: لا قليلا و لا كثيرا لأنه نكرة فى سياق النفى.

(وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا)أى:-بعثا بعد الموت

فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها و فسادها و فساد عقل من اتخذها آلهة و شركاء للخالق لسائر المخلوقات من غير مشاركة له فى ذلك الذى بيده النفع و الضر و العطاء و المنع الذى يحيى و يميت و يبعث من فى القبور و يجمعهم ليوم النشور

و قد جعل لهم دارين دار الشقاء و الخزى و النكال لمن اتخذ معه آلهة أخرى و دار الفوز والسعادة و النعيم المقيم لمن اتخذه وحده معبودا﴿٣﴾

*و لما قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد و بطلان ضده قرر صحة الرسالة و بطلان قول من عارضها و اعترضها فقال:-

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا)و قال الكافرون بالله الذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن و الرسول:-

(إِنۡ هَٰذَآ)هذا القرآن(إِلَّآ)كذب كذبه محمد و (إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ)على الله(وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ)على ذلك(قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ)

فرد الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرة منهم و إقدام على الظلم و الزور الذى لا يمكن أن يدخل عقل أحد

و هم أشد الناس معرفة بحالة الرسول ﷺو كمال صدقه و أمانته و بره التام

و أنه لا يمكنه لا هو و لا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن الذى هو أجل الكلام و أعلاه و أنه لم يجتمع بأحد

يعينه على ذلك (فَقَدۡ جَآءُو) بهذا القول (ظُلۡمٗا وَزُورٗا)و من جملة أقاويلهم فيه ﴿٤﴾

(وَقَالُوٓاْ)هذا الذى جاء به محمد(أَسَٰطِيرُ)قصص(ٱلۡأَوَّلِينَ)و أساطيرهم التى تتلقاها الأفواه و ينقلها كل أحد

(ٱكۡتَتَبَهَا)استنسخها محمد(فَهِيَ تُمۡلَىٰ)تُقْرَأ(عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ)صباحًا(وَأَصِيلٗا)مساء.

و هذا القول منهم فيه عدة عظائم:-

1-رميهم الرسول الذى هو أبر الناس و أصدقهم بالكذب و الجرأة العظيمة.

2-إخبارهم عن هذا القرآن الذى هو أصدق الكلام و أعظمه و أجله-بأنه كذب و افتراء.

3-أن فى ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله و أن يضاهى المخلوق الناقص من كل وجه للخالق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته و هى الكلام.

4-أن الرسول قد علمت حالته وهم أشد الناس علما بها أنه لا يكتب ولا يجتمع بمن يكتب له و قد زعموا ذلك

*وَ هَذَا الْكَلَامُ -لِسَخَافَتِهِ وَ كَذِبِهِ و بهْته مِنْهُمْ -كُلّ أَحَدٍ يَعْلَمُ بُطْلَانَهُ فَإِنَّهُ قَدْ عُلم بِالتَّوَاتُرِ وَ بِالضَّرُورَةِ:-
أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ يُعَانِي شَيْئًا مِنَ الْكِتَابَةِ لَا فِي أَوَّلِ عُمُرِهِ وَلَا فِي آخِرِهِ
وَ قَدْ نَشَأَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مِنْ أَوَّلِ مَوْلِدِهِ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَ هُمْ يَعْرِفُونَ مُدْخَلَهُ
وَ مُخْرَجَهُ وَ صِدْقَهُ وَ بِرَّهُ وَ أَمَانَتَهُ وَ نَزَاهَتَهُ مِنَ الْكَذِبِ وَ الْفُجُورِ وَ سَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ
حَتَّى إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُسَمُّونَهُ فِي صِغَرِهِ إِلَى أَنْ بُعِث إِلَّا الْأَمِينَ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ صِدْقِهِ وَ بِرِّهِ.
فَلَمَّا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ نَصَبُوا لَهُ الْعَدَاوَةَ وَ رَمَوه بِهَذِهِ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ بَرَاءَتَهُ مِنْهَا
وَ حَارُوا مَاذَا يَقْذِفُونَهُ بِهِ فَتَارَةً مِنْ إِفْكِهِمْ يَقُولُونَ:-سَاحِرٌ وَ تَارَةً يَقُولُونَ: شَاعِرٌ وَ تَارَةً يَقُولُونَ: مَجْنُونٌ
وَ تَارَةً يَقُولُونَ: كَذَّابٌ قَالَ اللَّهُ{انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً} [الإِسْرَاءِ: 48] ﴿٥﴾

فلذلك رد عليهم ذلك بقوله:-(قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ)

أى: أنزله من أحاط علمه بما فى السماوات و ما فى الأرض من الغيب و الشهادة و الجهر و السر كقوله:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)

و وجه إقامة الحجة عليهم أن الذى أنزله هو المحيط علمه بكل شيء فيستحيل و يمتنع أن يقول مخلوق و يتقول عليه هذا القرآن

و يقول:هو من عند الله و ما هو من عنده و يستحل دماء من خالفه و أموالهم و يزعم أن الله قال له ذلك

و الله يعلم كل شيء و مع ذلك فهو يؤيده و ينصره على أعدائه و يمكنه من رقابهم و بلادهم فلا يمكن أحدا أن ينكر هذا القرآن إلا بعد إنكار علم الله و هذا لا تقول به طائفة من بني آدم سوى الفلاسفة الدهرية.

و أيضا فإن ذكر علمه تعالى العام ينبههم و يحضهم على تدبر القرآن و أنهم لو تدبروا لرأوا فيه من علمه و أحكامه ما يدل دلالة قاطعة على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب و الشهادة

و مع إنكارهم للتوحيد و الرسالة من لطف الله بهم أنه لم يدعهم و ظلمهم بل دعاهم إلى التوبة و الإنابة إليه و وعدهم بالمغفرة و الرحمة إن هم تابوا و رجعوا فقال:-

(إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا)

أى: وصفه المغفرة لأهل الجرائم و الذنوب إذا فعلوا أسباب المغفرة و هى الرجوع عن معاصيه و التوبة منها.

(رَّحِيمًا)بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة و قد فعلوا مقتضاها و حيث قبل توبتهم بعد المعاصى و حيث محا ما سلف من سيئاتهم و حيث قبل حسناتهم و حيث أعاد الراجع إليه بعد شروده و المقبل عليه بعد إعراضه إلى حالة المطيعين المنيبين إليه﴿٦﴾

*هذا من مقالة المكذبين للرسول الذين قدحوا بها فى رسالته و هو أنهم اعترضوا بأنه هلا كان ملكا أو مليكا أو يساعده ملك

(وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ)ما لهذا الذى ادعى الرسالة؟ تهكما منهم و استهزاء.

(يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ)و هذا من خصائص البشر فهلا كان ملكا لا يأكل الطعام و لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر

(وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ)للبيع و الشراء و هذا – بزعمهم– لا يليق بمن يكون رسولا مع أن الله قال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ)

(لَوْلَآ)هلا(أُنزِلَ إِلَيْهِ)معه(مَلَكٌ)يساعده و يعاونه

(فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا)و بزعمهم أنه غير كاف للرسالة و لا بطوقه و قدرته القيام بها. كما قال فرعون:-

(فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)[الزخرف: 53]﴿٧﴾

(أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ)أى: مال مجموع من غير تعب

(أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا)فيستغنى بذلك عن مشيه فى الأسواق لطلب الرزق.

(وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ)حملهم على القول ظلمهم لا اشتباه منهم

(إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا)هذا و قد علموا كمال عقله و حسن حديثه و سلامته من جميع المطاعن﴿٨﴾

و لما كانت هذه الأقوال منهم عجيبة جدا قال تعالى:-

(ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ)و هي:أنه هلا كان ملكا و زالت عنه خصائص البشر؟

أو معه ملك لأنه غير قادر على ما قال أو أنزل عليه كنز أو جعلت له جنة تغنيه عن المشى فى الأسواق

أو أنه كان مسحورا.

(فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا)

وَ ذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ فَإِنَّهُ ضَالٌّ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ وَ مَنْهَجٌ مُتَّحِدٌ يُصَدّق بَعْضُهُ بَعْضًا.

*قالوا أقوالا متناقضة كلها جهل و ضلال و سفه ليس فى شيء منها هداية بل و لا فى شيء منها أدنى شبهة تقدح فى الرسالة فبمجرد النظر إليها و تصورها يجزم العاقل ببطلانها و يكفيه عن ردها

و لهذا أمر تعالى بالنظر إليها و تدبرها و النظر:-هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة و الصدق؟﴿٩﴾

و لهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيرا كثيرا فى الدنيا فقال:-

انكار المشركين للبعث و جزاؤهم 11-14

(تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ)أى:- مما قالوا ثم فسره بقوله:-

(جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا)مرتفعة مزخرفة فقدرته و مشيئته لا تقصر عن ذلك

و لكنه تعالى – لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد و الحقارة–أعطى منها أولياءه و رسله ما اقتضته حكمته منها و اقتراح أعدائهم بأنهم هلا رزقوا منها رزقا كثيرا جدا ظلم و جراءة.

و لما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق و لا لاتباع البرهان

*و إنما صدرت منهم تعنتا و ظلما و تكذيبا بالحق فقالوا ما بقلوبهم من ذلك﴿١٠﴾

و لهذا قال: (بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ)

و المكذب المتعنت الذي ليس له قصد فى اتباع الحق لا سبيل إلى هدايته و لا حيلة فى مجادلته

و إنما له حيلة واحدة و هى نزول العذاب به فلهذا قال:-

(وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا)نارا عظيمة قد اشتد سعيرها و تغيظت على أهلها و اشتد زفيرها﴿١١﴾

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

(إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) أى: قبل وصولهم و وصولها إليهم

*حَنَقًا عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ} [الْمُلْكِ: 78]
أَيْ: يَكَادُ يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهَا عَلَى مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ.

(سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا)ممن كفر بالله(وَزَفِيرًا)سمعوا صوت غليانها و زفيرها من شدة تغيظها منهم.

*تقلق منهم الأفئدة و تتصدع القلوب و يكاد الواحد منهم يموت خوفا منها و ذعرا قد غضبت عليهم لغضب خالقها و قد زاد لهبها لزيادة كفرهم و شرهم﴿١٢﴾

(وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ)مكتفين

*أى: وقت عذابهم و هم فى وسطها جمع فى مكان بين ضيق المكان و تزاحم السكان و تقرينهم بالسلاسل و الأغلال فإذا وصلوا لذلك المكان النحس و حبسوا فى أشر حبس

(دَعَوْا هُنَالِكَ)على أنفسهم(ثُبُورًا)هلاكا و خزيا و فضيحة

*و علموا أنهم ظالمون معتدون قد عدل فيهم الخالق حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل و ليس ذلك الدعاء و الاستغاثة بنافعة لهم و لا مغنية من عذاب الله﴿١٣﴾ بل يقال لهم:-

(لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا)هو الذى يَجْمَعُ الْهَلَاكَ وَ الْوَيْلَ وَ الْخَسَارَ وَ الدَّمَارَ كَمَا قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ:-

{وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} [الْإِسْرَاءِ: 102]أَيْ: هَالِكًا

(وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا)لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه ما أفادكم إلا الهم و الغم و الحزن﴿١٤﴾

*لما بين جزاء الظالمين ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال:-

جزاء المتقين 15-16

(قُلۡ)لهم-مبينا لسفاهة رأيهم و اختيارهم الضار على النافع- :

(أَذَٰلِكَ)الذى وَصفْتُ لكم من العذاب

(خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ)التى زادها تقوى الله فمن قام بالتقوى فالله قد وعده إياها

(كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ)على تقواهم(وَمَصِيرٗا)موئلا يرجعون إليها و يستقرون فيها و يخلدون دائما أبدا﴿١٥﴾

(لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ)يطلبون و تتعلق بهم أمانيهم و مشيئتهم من:-

المطاعم و المشارب اللذيذة و الملابس الفاخرة و النساء الجميلات و القصور العاليات و الجنات و الحدائق المرجحنة و الفواكه التى تسر ناظريها و آكليها من حسنها و تنوعها و كثرة أصنافها و الأنهار التى تجرى فى رياض الجنة و بساتينها حيث شاءوا يصرفونها و يفجرونها أنهارا من ماء غير آسن و أنهارا من لبن لم يتغير طعمه و أنهارا من خمر لذة للشاربين و أنهارا من عسل مصفى و روائح طيبة و مساكن مزخرفة و أصوات شجية تأخذ من حسنها بالقلوب و مزاورة الإخوان و التمتع بلقاء الأحباب

*و أعلى من ذلك كله التمتع بالنظر إلي وجه الرب الرحيم و سماع كلامه و الحظوة بقربه و السعادة برضاه و الأمن من سخطه و استمرار هذا النعيم و دوامه و زيادته على ممر الأوقات و تعاقب الآنات

(كَانَ)دخولها و الوصول إليها (عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا)

*عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَلُوا الَّذِى وَاعَدْتُكُمْ_إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْأَلُ لَهُمْ ذَلِكَ:{رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ} [غَافِرٍ: 8]
*إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالَ الْمُؤْمِنُونَ:-رَبَّنَا عَمِلْنَا لَكَ بِالَّذِى أَمَرْتَنَا فَأَنْجِزْ لَنَا مَا وَعَدْتَنَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ:- {وَعْدًا مَسْئُولا}

*يسأله إياها عباده المتقون بلسان حالهم و لسان مقالهم فأى الدارين المذكورتين خير و أولى بالإيثار؟

و أي العاملين عمال دار الشقاء أو عمال دار السعادة أولى بالفضل و العقل و الفخر يا أولى الألباب؟

لقد وضح الحق و استنار السبيل فلم يبق للمفرط عذر فى تركه الدليل فنرجوك يا من قضيت على أقوام بالشقاء و أقوام بالسعادة أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى و زيادة و نستغيث بك اللهم من حالة الأشقياء و نسألك المعافاة منها﴿١٦﴾

*يخبر تعالى عن حالة المشركين و شركائهم يوم القيامة و تبريهم منهم و بطلان سعيهم فقال:-

أتباع المشركين و جزاؤهم 17-20

(وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ)أى: المكذبين المشركين

(وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ)الله مخاطبا للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم:-

(فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ)
هل أمرتموهم بعبادتكم و زينتم لهم ذلك أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟ ﴿١٧﴾

(قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ)نزهوا الله عن شرك المشركين به و برؤوا أنفسهم من ذلك

(مَا كَانَ يَنۢبَغِى)يليق(لَنَآ)بنا و لا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم و نعبدهم و ندعوهم
فإذا كنا محتاجين و مفتقرين إلى عبادتك متبرئين من عبادة غيرك فكيف نأمر أحدا بعبادتنا؟
هذا لا يكون أو سبحانك

(أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ)و هذا كقول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام:-

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ* مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ الآية.و قال تعالى:-
(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ* وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ)
فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله أو يكونوا أضلوهم ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا:-

(وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ)فى لذات الدنيا و شهواتها و مطالبها النفسية

(حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ)حتى نسوا ذكرك فأشركوا بك اشتغالا فى لذات الدنيا و إكبابا على شهواتها
فحافظوا على دنياهم و ضيعوا دينهم

(وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا)هلكى غلب عليهم الشقاء و الخِذْلان بائرين لا خير فيهم و لا يصلحون لصالح لا يصلحون إلا للهلاك و البوار
فذكروا المانع من اتباعهم الهدى و هو:-
التمتع فى الدنيا الذى صرفهم عن الهدى و عدم المقتضى للهدى و هو أنهم لا خير فيهم
فإذا عدم المقتضى و وجد المانع فلا تشاء من شر و هلاك إلا وجدته فيهم ﴿١٨﴾
فلما تبرؤوا منهم قال الله توبيخا و تقريعا للعابدين:-فيقال للمشركين:-

(فَقَدْ كَذَّبُوكُم)أى:-هؤلاء الذين عبدتموهم(بِمَا تَقُولُونَ)فى ادِّعائكم عليهم
*إنهم أمروكم بعبادتهم و رضوا فعلكم و أنهم شفعاء لكم عند ربكم كذبوكم فى ذلك الزعم و صاروا من أكبر أعدائكم فحق عليكم العذاب كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ 5 وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}[الأحقاف]

(فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا)دفعا للعذاب عنكم بفعلكم أو بفداء أو غير ذلك

(وَلَا نَصۡرٗاۚ)لعجزكم و عدم ناصركم.

هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين كما رأيت أسوأ حكم و أشر مصير.

و أما المعاند منهم الذى عرف الحق و صدف عنه فقال فى حقه:–

(وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ)بترك الحق ظلما و عنادا

(نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا)لا يقادر قدره و لا يبلغ أمره. ثم قال تعالى جوابا لقول المكذبين:–

(مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) ﴿١٩﴾

(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ)

فما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام و ما جعلناهم ملائكة فلك فيهم أسوة

و أما الغنى و الفقر فهو فتنة و حكمة من الله تعالى كما قال:–

(وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً)ابتلاء و اختبارًا بالهدى و الضلال و الغنى و الفقر و الصحة و المرض

*الرسول فتنة للمرسل إليهم و اختبار للمطيعين من العاصين و الرسل فتَنَّاهم بدعوة الخلق و الغنى فتنة للفقير و الفقير فتنة للغنى و هكذا سائر أصناف الخلق فى هذه الدار دار الفتن و الابتلاء و الاختبار.

و القصد من تلك الفتنة :–

(أَتَصۡبِرُونَۗ)

فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبة بما أوجبه الله عليكم و تشكروا له فيثيبكم مولاكم أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟

(وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا)يعلم أحوالكم و يصطفى من يعلمه يصلح لرسالته و يختصه بتفضيله و يعلم أعمالكم

فيجازيكم عليها إن خيرا فخير و إن شرا فشر.كَمَا قَالَ تَعَالَى:{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[الأنعام: 124]

وَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ لِمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ وَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ﴿٢٠﴾